
روايات مصرية للجيب
39
صديقي جلجامش
فانتازيا
Looloo
www.dvd4arab.com
د. أحمد خالد توفيق

مقدمة

(عبير عبد الرحمن) هى إنسانة عادية إلى حد غير مسبوق .. إلى حد يخطف الأبصار .. إنها الشخص الذى نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا .. الشخص الذى لا يتفوق فى الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء .. لكن لابد من شىء ما يميزها وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها .. ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة .. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق .. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر .. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشىء .. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة ..

فى نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا .. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط ، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التى أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممى الألعاب ، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذى يولد الأحلام ، والذى لا يصلح إلا لها فى الواقع ، وبهذا غدت أول مخلوق بشرى يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة ، بل يشارك فيها كذلك .. ومن البديهى أن (عبير) صارت تنتمى لـ (فانتازيا) أكثر مما تنتمى لعالمنا .. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم فى (فانتازيا) ..

إن (عبير) كريمة النفس ، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لايتغير .. سوف تصحبنا معها .. سوف نعبر معها عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يومًا ما .. سوف تقابل -ونحن معها- العبقرى المخيف (دستويفسكى) وتجلس فى مجلس واحد مع (أرشميدس) و(الخوارزمى) و(أينشتاين) .. سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذى أصابه بالسرطان .. سوف تمشى مع (أفلاطون) فى بستان مدرسته .. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة ، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب .. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كى تلتهم التفاحة ، أو تهدد المقصلة عنقها ، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء ، أو تغطس فى كرة أعماق الدكتور (بيب) .. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول ..

إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هى : لاقواعد .. وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هى : لاحدود ..

إن جرس المحطة يدق ، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار .. والمرشد الملول الذى يرشدها فى أنحاء (فانتازيا) يقف نافد الصبر على باب القطار .. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة ..

لقد حان موعد قصة أخرى ....

إهداء : إلى العظماء الخالدين (جلجاميش) و(حمورابى) و(أشور بانيبال) و(نبوخذ نصر) و.. و.. إلى حضارة بين النهرين العظيمة ، التى هى واحدة من أقدم حضارات التاريخ إن لم تكن أقدمها فعلاً والتى تهينها اليوم وتبدد آثارها وتعريها وتجرها بحبل من عنقها حضارة لم يتجاوز عمرها بضع مئات من السنين ..

1ـ رحلة جديدة ..

تأرجح يا قطار (فانتازيا) المضحك ، الذى يمشى فى طرق عشوائية تمامًا ، ولا يكرر الطريق ذاته مرتين أبدًا .. ما زلت طفولى المنظر حقًا تذكرنى بقطارات (ديزنى) التى لها عينان فى المقدمة وسيجار غليظ تنفث منه الدخان .. صحيح أن بعض الهرم قد زحف عليك واكتسيت بالغبار والسناج .. لكن سبب هذا هو نفسية (عبير) ذاتها التى ملأتها الآلام فتسللت إلى عالم (فانتازيا) ذاته ..

(عبير) تجلس فى المقعد وأمامها (المرشد) الذى اتخذ وضعًا من الجلوس أقرب إلى الرقاد ، وفى يده القلم الزنبركى اللعين يضغط رأسه مرارًا : تك .. تتك .. تك .. تتك .. يمكنك أن تفقد عقلك بسهولة .

إنها تمسك بالنشرة المطوية التى تشرح معالم (فانتازيا) .. تلك النشرة التى يعاد طبعها قبل كل زيارة لها .. تفخر (عبير) - ويفخر المؤلف بأنهما ارتادا عوالم الحقيقة الافتراضية قبل أن يقدمها فيلم (ماتريكس) و(استعادة كلية Total Recall) بأعوام عديدة ، تلك العوالم التى يخلقها الكمبيوتر

ليصير بوسعك أن تعيش وتتنقل فيها .. بل إن الموت داخل الـ (ماتريكس) يعنى الموت فى عالم الواقع لأن (الجسد لن يعيش من دون العقل) ، وهو ذات التحذير الذى تلقته (عبير) فى (فانتازيا) عام 1995 .. إلا أن عوالم (ماتريكس) صنعتها آلات عملاقة دكتاتورية ترغب فى استعمال البشر كبطاريات ، بينما عوالم فانتازيا صنعها مبرمج مصرى نحيل بإمكانيات شبه بدائية ، وباستعمال جهاز رسم مخ كهربائى عتيق .. وكان غرضه أولاً استكشاف عوالم الحلم ثم لم يعد له غرض إلا الترفيه عن زوجته .. أو من كانت زوجته .

حتى إنه لم يقم بربط برنامج (دى جى) ببيئة النوافذ قط ، وإنما ظل البرنامج كما هو يعمل من بيئة (دوس DOS) !

تعالى صوت غطيط المرشد الذى - كما نعرف عنه - يشعر بملل أبدى .. وأسوأ لحظات حياته هى التى تظل فيها (عبير) عاجزة عن حزم أمرها كأنها طفل حائر فى متجر ألعاب .. ولكم من مرة أضطر إلى إرغامها على اختيار ما ، أو أقنعها بأنها اختارت وهى لم تفعل ..

راحت تقلب النشرة .. كانت دائمًا تشعر بأن هذه هى المرة الأخيرة .. دعك من أنها لاتريد أن تجد نفسها وسط جحيم

(هيروشيما) أو قلب حرب (طروادة) أو تجد نفسها مشلولة صماء بكماء عمياء ..

فجأة توقفت عند صفحة بعينها ..

من المعروف فى (فانتازيا) أن النشرة تتزامن تزامنًا مثيرًا للإعجاب مع مشاهد النافذة .. لهذا ترى فى الصفحة التى أمامها رجلاً اشوريًا عملاقًا ـ أليست هذه اللحية الكثة المجدولة فى صفوف أشورية ؟ ـ يقف ممسكًا تحت إبطه بأسد يحاول التملص كأنه قط .. ونظرت خارج النافذة فرأت مدينة هائلة لها أبراج مخيفة ، ورأت رجالاً ضخامًا شديدى المراس يحاربون مجموعة من الأسود .. ورأت رجلاً ضخمًا يمتطى أسدًا .. ورأت طفلاً يداعب أسدًا .. ما هذا بالضبط ؟ هل هى محمية طبيعية للأسود ؟

هزت (المرشد) فلم يستجب .. اضطرت إلى أن تمد طرف حذائها وتوجه له ركلة خفيفة فى ركبته ، فنهض مذعورًا وهتف :

ـ « نعم .. نعم .. موعد العودة يا فتاة ! هيا بنا .. »

قالت فى برود :

ـ « نحن لم نبدأ بعد .. أين نحن؟ »

نظر خارج النافذة وضيق عينيه ليرى أفضل ثم قال :

ـ « بلاد ما بين النهرين Mesopotamia .. بمعنى آخر أنت فى فى العراق وشرق سوريا .. »

ـ « وما هذه القصة ؟ »

ـ « طبعًا أسطورة (جلجاميش gilgamesh) .. لسنا هنا فى منطقة (ألعاب تاريخية) .. إذن ليس هذا تاريخًا وإنما هى ملحمة أسطورية من أعظم الملاحم فى الخيال البشرى .. نقاد الدب يضعونها فوق ملاحم (هوميروس) بعدة درجات .. »

قالت فى ضيق وهى تضع المطوية جانبًا :

ـ « لا أعرف عنها حرفًا .. طبعًا ستقول لى إننى أعرفها لكنى نسيت أننى أعرفها .. »

ـ « أنت تتكلمين بلسانى .. لا وجود لحجر واحد أو شجيرة أو شخص فى (فانتازيا) ما لم تكونى على علم سابق به .. كيف يخرج من فص ما ليس فيه أصلاً ؟ »

قالت له وهى تنظر إلى العالم خارج النافذة :

ـ « حسن . دعنى أجرب .. ما دورى هنا ؟ »

فكر قليلاً وحك رأسه ثم قال :

- « توجد أدوار ذكرية كثيرة .. لكنك لاتحبين هذا بعد مغامرة (روبن هود Robin hood) .. هل تحبين القيام بدور راقصة المعبد الغانية (شامحات) ؟ »

- « احترام نفسك !! »

قال من دون اكتراث :

- « أولاً ليست (غانية) سبة وإنما لفظة عربية فصيحة تعنى (التى استغنت بجمالها الطبيعى عن الزينة) وقد تغير معناها مع الوقت .. وحينما قال (شوقى) :

- « خدعوها بقولهم حسناء .. والغوانى يسرهن الثناء .

- « لم يكن يقصد اتهام المذكورة بأنها منحلة وإنما بأنها مغرورة .. ثانيًا حتى مع تغييرات (فانتازيا) لا أعتقد أن لديك إمكانيات تسمح بهذا .. »

- « احترام نفسك مرة أخرى ! »

- « هكذا النساء .. يلمنك لو قلت إنهن جميلات ويلمنك لو قلت إنهن لسن كذلك .. هل تحبين أن تصيرى رجلاً وتلعبى دور (أوتنابشتيم) ؟ »

قالت فى تقزز :

- « حتى لو قبلت لعب دور رجل ، فمن العسير أن العب دور رجل لا أستطيع حفظ أسمه أكثر من خمس دقائق .. »

ابتسم فى شيطنة وسألها وهو يعتدل فى جلسته :

ـ « خمس دقائق ؟ أنت تحسنين الظن بذكائك .. لقد مرت عشر ثوان .. كررى على مسمعى الاسم ذاته ! »

ـ « عمن تتحدث ؟ هذا الـ (أونشيم) .. هذا الـ (اوتناسايكلين) .. »

ـ « توقعت هذا ! والآن لنجد لك دورًا أنثويًا مناسبًا .. »

وراح يقلب فى المطوية التى معه ثم هتف فى انتصار :

ـ « (عشتروت) !! ستلعبين دور (عشتروت) ! »

ـ « ومن هى ؟ »

ـ « ستعرفين كل شىء فى وقته .. »

ثم مد يده يجذب حبل القطار .. أحيانًا يجذب الحبل أو يضرب السقف ، والقطار ـ ماشاء الله ـ يتمتع بذكاء صناعى غير مسبوق .. إنه يعرف نيته على الفور بلا أدنى أرتباك ..

هكذا وجدت (عبير) نفسها تقف ـ للمرة الأولى فى حياتها ـ على ضغاف نهر (دجلة) ..

* * *

2ـ جلجاميش ..

بعين الخيال تراه (عبير) .. عبر المسافات وعبر الأزمان ..

منذ مائة عام يجلس هناك فى الظلام الذى لا يبدده إلا ضوء شمعة خافت .. الطقس حار والبعوض يحيل الحياة جحيمًا لأنه يلتصق بالعرق فلا يغادر جلدك إلا ميتًا .. لكن الرجل جالس وفى يده العدسة ، وأمامه قطع صلصال كبيرة نسخ بها ـ كما يفعل علماء الآثار صور النقوش التى كانت على الطين المحروق ، ثم طبعها على الورق .. بهذا ظهرت تلك النقوش الدقيقة الأقرب إلى الزخرفة والتى ظل أعوامًا يحاول فك لغزها .. والمشكلة أن هؤلاء القوم الذين كتبوا هذه النقوش منذ آلاف السنين كانوا يتمتعون بعيون ممتازة .. يبدو أن داء طول النظر لم يكن موجودًا فى تلك العصور .. بعض القطع تحوى ستة أسطر فى مساحة سنتيمترين مربعين ..

هذا هو (جروتنفند Groten fend) عالم اللغات الألمانى العظيم ، يحاول فك ألغاز هذه الألواح المكتوبة باللغة

المسمارية Cuneiform .. اللغة التى تستعمل حروفًا أقرب إلى المسامير أو (الخوابير) يتم نقشها على الطين المحروق، والتى سبقت الأبجديات المعروفة بـ 1500 سنة . اللغة التى ابتكرها السومريون ثم تبناها الأشوريون والبابليون . هذا النص فارسى وجدوه فى أطلال مدينة (برسيوليس Persepolis) ولسوف يقود إلى أعظم كشف فى تاريخ الآثار بعد كشف رموز اللغة الهيروغليفية ، ومن حسن الحظ هنا هى أن المسمارية الفارسية كانت اسهل من المسماريات الأخرى ..

وقد كان (جروتفند) يعرف من هذه الرموز رمزًا واحدًا هو (ملك) ..

لهذا استخدم نوعًا من الحاسة البوليسية .. إن عدة أسماء تتكرر فى النص .. هناك ثلاثة أشخاص أحدهم لايسبق اسمه لفظة (ملك) .. وهو يعرف من التاريخ الفارسى أن الذى كان أبًا لملك وجدًا لملك ولم يكن هو نفسه ملكًا هو (هستاسب) .. إذن نص العبارة يقول :

داريوس ملك .... ابن هستاسب .... إكزركسيس ملك ابن داريوس

بهذه الجملة القيمة دارت العجلة بيد عشرات من علماء

اللغة ، واستطاع العالم أن يفك الكثير من الحروف الهجائية للغة المسمارية .. وانفتح الستار عن طريقة تفكير تلك الحضارة الهائلة المخيفة .. حضار بلاد ما بين النهرين ..

وفيما بعد سوف يجد علماء الآثار تحت أطلال مدينة (نينوى) مجموعة من الأقراص .. لا .. ليست أقراصًا مدمجة CD ، إنما أقراص من الطين المحترق .. ورق ما بين النهرين . هناك اثنا عشر قرصًا دونت عليها الملحمة باللغة الأكادية Akadiac . وآخرها مهشم بفعل الزمن . والأقراص تحكى قصة ..

* * *

ينزلق الزجاج الأسود ببطء على طريقة الأفلام السينمائية .. (لمياء) تعشق هذا التأثير حين يبرز وجهها لعينيه الذاهلتين ببطء ، وبعد ما كان لا يرى إلا انعكاس وجهه المرهق ، يرى وجهها هى يطل عليه من نافذة السيارة السوداء الفاخرة ..

لكنها تكره أن يرى عينيها برغم هذا .. إنها تستعمل العينين فى الوقت والزمان المناسبين وتخرجهما من وراء النظارة السوداء فى لحظات تختارها هى ، على طريقة (جرجت حسام نظراتها) الشهير عند العرب .. أما الآن فالنظارة السوداء

تستكمل التأثير ذاته .. إنه يرى وجهه الملوث بالعرق المذهول مكررًا مرتين فى العدستين .. تأثير سينمائى آخر تحبه كثيرًا ..

كان يقف جوار صاحبه فى العمل .. وهو يماثله فى القوة والفتوة ، لكن ما ابعد الفارق بينهما من ناحية الوسامة .. يذكرها وجه صاحبه بدب أشهب غاضب ..

نظر لها فتاها فى حيرة وضغط على المضخة ليوقف تدفق البنزين :

ـ « هل أملأ الخزان كله ؟ »

هزت رأسها فى كبرياء .. والحقيقة التى صار كلاهما يعرفها الآن أنها تملأ الخزان مرة من ذات المحطة وذات الفتى .. حتى أنه تساءل : ماذا تصنعه بالبنزين بالضبط ؟ لم يسمع قط عن شخص يشرب البنزين لكن هذا وارد بالصورة الحالية ..

قال لها فى ارتباك وهو يتظاهر بأنه لا يرى عينيها :

ـ « السيارة جديدة .. لا يبدو أن المحرك يحرق البنزين بهذه السرعة .. »

لم ترد وظلت تراقبه .. مسرورة لأنها تسبب ارتباكه ..

بعد قليل سألته وهى تعرف الإجابة يقينًا :

- « (جلال) .. أليس هذا هو الاسم ؟ »

هز رأسه فى ارتباك ..

- « طالب فى كلية الحقوق .. وتعمل هنا لسداد نفقات دراستك وأسرتك ؟ »

هز رأسه من جديد غير عالم ما يقول ..

- « برافو (جلال) .. برافو . »

قالتها بتك الطريقة التى تعرف كيف تصدرها .. ثم مدت يدها من فوق حافة الزجاج بالورقة ذات الخمسين جنيهًا .. لا تضع فى معصمها الكثير من الحلى ما عدا سوارًا واحدًا يبدوا أن سعره يختصر الكثير .. هو لا يفهم فى الحلى لكنه يعتقد أن هذه الحلية مزينة بالبلوتينيوم أو اليورانيوم ..

نزع الورقة وقال شيئًا عن انتظارها حتى يجلب الباقى ، لكن الزجاج ارتفع فى اللحظة ذاتها ليولد الحاجز الأسود من جديد .. الحاجز الذى تراه من ورائه ولا يراها ..

لن يقاوم كثيرًا .. لن يقاوم .. هو لم يلمس امرأة فى حياته ولم يعرف إلا كتبه وحارته ورائحة البنزين .. سوف

تهوى هى عليه كلكمة تطير صوابه .. ولسوف يستسلم بلا قتال ..

وانطلقت السيارة مبتعدة ..

★ ★ ★

كانا جالسين يشاهدان التليفزيون ويأكلان بعض التمرات .. لاتسألنى من فضلك عن ظهور التليفزيون فى (بابل) القديمة لأن هذه هى (فانتازيا) حيث لاتنطبق مقاييسنا تمامًا ..

دخلت ووقفت ترقبهما .. كانت الآن تعرف عدة أشياء عن نفسها .. أولاً هى تملك قدرات خارقة . ثانيًا هى سيئة الطبع غيور جدًا .. ثالثًا اسمها (عشتار Ishtr) .. هذا كاف كما ترى لبدء القصة ..

كان أبواها يجلسان أمام التليفزيون كما قلنا .. الرجل ذو اللحية التى تكسو صدره الذى يتسلى باللعب فى أصابع قدمية هو (آنو Anu) ، وهو يلعب فى هذا العالم دور (زيوس) فى الأساطير الإغريقية ، أما المرأة فهى أمها (أنتوم) ، وتلعب إلى حد ما دور (هيرا) فى الأساطير الإغريقية ..

قال لها أبوها دون أن تفارق عينيه الشاشة :

ـ « ماذا تريدين يا (عشتور) ؟ »

(عشتور) ؟ هذا هو أفضل تدليل أمكنهما ابتكاره لاسم (عشتار) ؟ لكن لا وقت لديها لهذا الهراء .. إنها مدللة عصبية ، اعتادت منذ الصغر أن تنال ما تريد حينما تريد ، وكان (بابى) يحقق لها أى شىء .. هات لى هذه المدينة . انسف لى هذه القرية ..

قالت فى حنق :

ـ « اللعين (جلجاميش Gilgamesh) !! »

ـ « ماذا دهاه ذلك اللعين ؟ »

ـ « لقد رفض حبى له ! »

ابتسمت الأم ، أما الأب فبدا أقرب إلى التعقل وقال :

ـ « من حق (جلجاميش) أن يرفض حبك .. فيما بعد سيقول المصريون فى أمثالهم : كله عند العطار إلا حبنى غصب .. »

وأضافت الأم :

ـ « بينى وبينك ياحبيبتى .. أنت تتلاعبين بعشاقك طيلة الوقت .. ليس من بينهم إلامن غدرت به أو خنته أو تخلصت منه بداعى الملل .. (جلجاميش) ملك عظيم وبطل المغوار وهو غير راغب فى أن يصير مجرد اسم فى القائمة .. »

تصاعد الدم إلى رأسها وهتفت :

ـ « أنا (عشتار) .. (عشتار) الفاتنة .. (عشتار) القوية .. أقضى الليل فى سهاد .. وأبكى وأعتصر الوسادة كمراهقة تهيم حبًا بمطربها المفضل .. وكل هذا من أجل كائن بشرى تافه .. أية إهانة هذه ! »

كانت قد رأته فى المرج فى ذلك اليوم الأسود .. الأسود بالنسبة لها طبعًا .. لم تتصور قط أن فى العالم كله رجلاً بهذا النبل والجمال والقوة .. لولا أنها تعرف أنه بشرى لاعتبرته إلهًا وثنيًا آخر من الذين تعج بهم أساطير البلاد(*) .. وهنا يجب ان الآنسة (عشتار) هى ذاتها مختصة بالخصب والنماء فى المعتقدات الدينية الوثنية لهذا العصر ، وبالتالى كان بوسعها أن تعد فتحقق وعدها .. فاتنة ؟ طبعًا كانت (عشتار) فاتنة .. من قال العكس ؟

(★) للمزيد من الدقة ، تقول الأسطورة إن (جلجاميش) خليط من البشر والآلهة بنسبة 46 % و54 % مع بعض المواد الحافظة ..إنه Demigod كما كان هو كيوليس وثيثيوس وسواهم فى الأساطير الأغريقية ..

لقد اتجهت فى ثقة إلى البطل البابلى المغوار ، وقالت بطريقة عابرة :

ـ « هاى .. »

لم يرد لأنه كان منهمكًا فى خنق ثلاثة أسود ..

قالت وهى تعابث خصلات شعرها السوداء :

ـ « هل ترغب فى .. لنقل هل ترغب فى أن تكون صديقى ؟ »

لم يرد لأنه كان يفسح تمساحًا .. فواصلت الكلام :

ـ « هناك مزايا عدة لأن تكون حبيبى .. أى شىء ترغب فيه سيكون ملكًا لك .. ما نوع سيارتك ؟ »

قال وهو يخنق أفعوانًا :

ـ « ليست لدى سيارة .. »

ـ « حسن .. تصور نفسك فى عربة مذهبة موديل العام نفسه تجرها خيول تتصاعد النار من تحت حوافرها ومعرفتها .. عربة تحلق فوق السحاب وتحملك إلى الشرق ، حيث يجثو الملوك الصفر ويمرغون رءوسهم فى التراب .. يلثمون يديك وقدميك .. تصور أن كل محاصيل الأرض ترد إليك من أربع

جهات المعمورة ، وهذه المحاصيل تكدس عند قدميك .. كل الإبل والماعز والأبقار .. كل ثيران الشرق وكل خيول الغرب .. كل ثيران الشرق وكل هذا لك أنت وحدك .. فقط لو .. »

وغمزت بعينها تحت حاجتها البابليين المتصلين ، ثم أمسكت بكفه وقربتها من شفتيها الحمراوين ..

ـ « لا !! »

واضح أن هذا (الجلجاميش) لا يجيد التعامل مع الجنس اللطيف ، أو إن كثرة الحروب جعلت هذا أرق شىء فى وسعه .. لقد تملص منها فى غير رفق وقال :

ـ « اسمعى يا (عشتار) .. أنا أعرفك ! تجمعين العشاق كما يجمع سواك الفراشات أو الحجارة الغريبة ، ربما لا تريدين منهم إلا أن يكونوا لك .. تنامين راضية كلما فكرت فى أن رجلاً آخر صار فى حبائلك .. الرجال عندك نوعان : نوع تريدينه ولا يريدك ونوع يريدك ولا تريدينه .. ولسوف تحاولين معى كثيرًا إلى أن أنضم لخانة (رجال يريدونك ولا تريدينهم) عندها تتخلصين منى .. كما يقرر الصبى التخلص من مجموعة أحجاره بإلقائها فى نهر (الفرات) .. لكن دعينى أؤكد لك شيئًا : لا أحد يخدع (جلجاميش) أو يرغمه على شىء .. »

ثم حمل الأسود الثلاثة على كتفه وابتعد دون كلمة أخرى ..

لم تكن هى قد تلقت هذا الفيض من الإهانات من قبل .. صفعة عملاقة بحجم القمر قد هوت على خدها ما زلت تصفر فى أذنها حتى الآن ..

هكذا لنا ان نتصورها وهى تجرى بصندلها البابلى الأنيق وسط الأحراش ، وهى تصرخ بلا انقطاع ، وتدمع بلا توقف :

- « باباااا ! باباااا !! »

* * *

3ـ الانتقام..

قال (جلال) لـ (لمياء) شيئًا مماثلاً حينما طلبت أن يصحبها إلى كافيتريا صغيرة فى (الزمالك) .. قالت إنها تريد أن تعرفه أكثر ، فقال ما أراد قوله بتهذيب لكن بحدة وصرامة :

ـ « أرجوك ألا تتسلى على .. أنا أعرف من أنت يا آنسة وأعرف من أنا جيدًا .. وكل ما أريده أن أعمل فى محطة البنزين هذه وأن استكمل دراستى وأعول أسرتى .. لا تسلى على ارجوك .. ربنا يكرمك لا تتسلى على .. لا وقت لدى كى أصير لعبة فى يد آنسة ثرية .. »

كان يعرف أنها معجبة به لأنه مختلف ، ولعل (الشلة) ستهنئها على هذا الفتى الفريد .. من يدرى ؟ ربما يصير الفتى الفقير الجاد موضة هذا العام لدى الفتيات .. ياى ! إن هذه الطبقة قد تجد متعة من آن لآخر فى الجلوس على الرصيف والتهام الفلافل والجبن القديم .. ربما يعشقون ارتداء الجلابية فيما يطلقون عليه (جلابية يارتى) .. لكنه فى النهاية يملك طموحات أكبر بكثير من أن يصير مجرد موضة ..

بينما سيارتها تبتعد ، دنا منه صاحبه المخلص (مجدى) وربت على كتفه :

ـ « ماذا هنالك ؟ هل ضايقتك هذه المدللة ؟ »

قال (جلال) وهو يعيد وضع فوهة الخرطوم فى مكانها :

ـ « تحاول ان تتسلى .. بينما نحن لا نجد ما يكفينا من متاعب وشقاء .. »

★ ★ ★

ـ « أنا أريد أن أعاقبه .. أريد أن يراه يتعذب ! »

قالتها (عشتار) لأبيها وهى تقف فى عصبية أقرب إلى شيطان يبحث عن مشاكل ..

خفض من صوت جهاز التليفزيون ونظر لها .. كان يعرف أنها خطرة .. هو من صنع هذا الوحش عن طريق تراكمات التدليل ، لكنه الآن عاجز عن وضع حد لهذا .. ليس فى وسعه إلا أن يسايرها .. وإذا كان ابن المسئول صاحب النفوذ يتحول إلى وحش مفترس فى كل مكان ، فما بالك بابنة (آنو) نفسها ؟

قال لها وهو يفكر فى طريقة للتهرب :

ـ « ماذا ترين إذن ؟ »

ـ « أنت تعرف يا أبى ! »

والكارثة إنه كان يعرف .. فهو يفهم ابنته جيدًا .. لم يحدث قط أن رجلاً رفض حب (عشتار) .. ومعنى رفض (جلجاميش) لها إن الانتقام سيكون فريدًا ..

قال لها للمرة الأخيرة :

ـ « (عشتار) يا عزيزتى .. دعك من هذه القصة .. هذا الفتى لا يستحقك على الإطلاق .. »

ـ « لكننى أستحقه .. وهذا يثير غيظى .. »

ثم اتسعت عيناها لتصيرا عينى وحش مفترس وهتفت :

ـ « لو لم تساعدنى يا أبى فإننى سأتصرف .. سأفتح بوابات العالم السفلى ليخرج الموتى يقتحمون بيوتهم ليفترسوهم .. »

ارتجف الأب طيب القلب لهذه الفكرة المرعبة .. نفس هذه الفكرة المخيفة ـ خروج الموتى ليأكلوا الأحياء ـ هى التى جعلت شعب (الكلت) يغادرون بيوتهم فى ليلة (هالوين Halloween) من كل عام ، لأنهم كانوا يعتقدون أن إلههم (ساوين Samhin) يرسل الموتى للأحياء فى تلك الليلة(*) .. وعلى سبيل تخويف

(*) نعم كان ينطق (ساوين) وليس (سامحين) ولا تسألنى عن السبب !

الأشباح كانوا يلبسون تلك الأقنعة المرعبة التى يلبسها أطفال الغرب اليوم ليلة الحادى والثلاثين من أكتوبر ..

قالت (عشتار) التى لم تكن تتمتع برقة القلب :

ـ « أو ليكن انتقام آخر .. سأكف عن جلب الخصب والنماء إلى الأرض ، ولسوف تحل بالأرض سبع سنين من الجدب والقحط .. إن الموت بفعل المجاعة أقسى من الموت بأنياب الموتى .. الخلاصة إننى (حاجيب عاليها واطيها) .. »

ثم ابتسمت برقة وقالت :

ـ « هذا طبعًا لو لم تساعدنى يا أبى ! »

هكذا لم ير حلاً .. حياة (جلجاميش) مقابل حياة آلاف التعساء الذين سيموتون تحت غضبة (عشتار) ..

قال لها وهو يرفع صوت التليفزيون ليتابع المسلسل :

ـ « ليكن .. خذى الثور الأسود ! لكن حاولى أن تسيطرى عليه .. »

صاحت فى مرح :

ـ « شكرًا يا بابى .. شكرًا ! »

وانطلقت إلى الحظيرة الكونية حيث ينتظر الثور المخيف ..

★ ★ ★

وقالت (لمياء) لأبيها الذى كان يلعب (الجولف) فى النادى :

ـ « هذا الحيوان الوقح .. يجب أن تؤدبه يا دادى . »

ضرب (رجائى) بك الكرة وراح يراقبها وهى تتواثب فوق العشب الأخضر الجميل .. لم تصب ..

كان (رجائى) بك فى الخامسة والستين الآن لكنه ما زال يتمتع بوسامته وأناقته .. ربما هذا حال من يأتيه الثراء متأخرًا فيقرر أن يعطل كل التغيرات البيولوجية المحتمة على جسده ، فقط ليستمتع بالمال فترة أطول .. لسبب ما يكف الشعر عن الابيضاض ، وتكف العضلات عن الترهل ، ويكف البطن عن البروز .. لا تسأل عن تفسير ذلك طبيًا فلا علم لى لكنه يحدث ..

واسع النفوذ هو .. ولم يكن ينتمى للأرستقراطية من قبل ، لكنه حاول تعويض ما فاته بسرعة .. تخلص من أم العيال التى رافقته فى فترة كفاحه الأولى .. امرأة بدينة بائسة طيبة القلب لا يستطيع أن يظهر معها فى أى مكان

من دون أن يخجل ، وتزوج تلك الفتنة التى تنتمى لأرستراطية ما قبل الثورة .. كان هذا منذ عشرين عامًا ، واليوم (لمياء) هى ابنته الوحيدة فى عصر ما بعد الفقر .

قال لابنته وهو يشعل سيجارًا (لم يكن يحب السيجار لكنه وجده ضروريًا للمظهر الذى يصبو إليه) :

- « لم أفهم يا (لمياء) .. ماذا فعل بالضبط ؟ »

قالت فى ضيقة وهى تركل الأرض :

- « أنت تفهم كيف يكون المرء وقحًا .. إنه يعتمد قول كلمات هامسة مشينة ، ويعتمد لمس يدى حين أناوله النقود .. يجب أن تربيه يا دادى .. »

فكر حينًا .. لم يكن باله رائقًا لهذه الأمور الصبيانية ، كما إنه كان يعرف (لمياء) جيدًا .. على الأرجح هى كاذبة .. كل ما تقوله (لمياء) كذب ولو قالت له (صباح الخير) لفتح النافذة ليتيقن ما إذا كان الوقت صباحًا أم ليلاً .. لكنه يعتبر كذبها هذا لمسة أرستقراطية انيقة لا يريد أن تفقدها ..

قال لها :

- « لماذا لا تغيرين المحطة وينتهى الأمر ؟ »

- « لن يجعلنى هذا الصعلوك أغير مسار حياتى .. ثم إنه لو لم يلقن درسًا لتمادى مع أخريات .. »

وبعصبية ركلت العشب وصاحت :

- « أقسم بالله لو لم تتصرف يا دادى فلسوف أبرهن لكم أنا مجنونة .. أنت لم تر (لمياء) حين تجن رسميًا .. »

فكر من جديد .. لا بأس .. إن (كامل) لم يستحق راتبه منذ فترة ، وهو مولع بالمشاجرات .. لعل هذه هى فكرته عن (قضاء وقت طيب) .. لم لا تأخذ (كامل) والباقين ؟ هؤلاء التنابلة الذين يجلسون فى الشمس فى حديقة الفيلا ولا يفعلون شيئًا سوى خراب بيته بكل ما يأكلون ويشربون ، ثم يقبضون رواتبهم الباهظة ؟

قال لها وهو يضرب الكرة ثانية :

- « ليكن .. لكن لن أتصل بأحد .. خذى (كامل) والباقين معك وهم سيقومون باللازم .. »

صاحت فى مرح وهى تصفق بيديها :

- « واو .. شكرًا يا دادى .. شكرًا !! »

ووثبت لتطبع قبلة على خده المجعد عطر الرائحة ..

* * *

سيبدأ المرح حالاً ..

(عشتار) / (عبير) تهبط الآن من السماوات نحو مدينة (أوروك Uruk) - لاحظ تشابه الكلمة مع (عراق) - وهى تمسك ثور أبيها بالسلسلة .. ثور ؟ لا .. لن تفيد اللفظة فى تقريب هذا الكائن إلى ذهنك .. ربما لو تخليت ميدان التحرير وقد صار لونه أسود ونبت له قرنان يمكنك أن تقترب من المشهد نوعًا ..

لقد فوجىء البشر بالظل الذى حجب الشمس ثم رفعوا عيونهم لأعلى فرأوا الهول .. إن (عشتار) تمتطى الثور الأسود وتمسك بسلسلته ، وتهوى من أعلى وعلى وجهها ضحكة متوحشة .. كانت عبير مشفقة على هؤلاء التعساء لكنها مضطرة للعب الأسطورة حرفيًا ، ولكم كانت تفضل لو أعطاها المرشد دورًا أكثر رقة ..

كان هدفها أن تمزق (جالجاميش) وحده ، لن هذا مطلب عسير بينما الثور البرى العملاق لا يدقق .. لقد راح يطأ البيوت ويرفس الحقول ، وينطح من أراد أن ينطح .. كأن الأسطورة الصينية عن الثور فى معرض الخزف تتكرر ..

البشر يتطايرون اشلاء .. والصرخات تتعالى كأنها الموسيقا فى اذنيها ..

لا ترى (جلجاميش) لكنها تعرف أنه لن يتحمل ما يجرى لشعبه .. إنه آت ولا ريب ..

فيما بعد قال الصليب الأحمر إن عدد القتلى ستمائة أما عدد الجرحى فأضعاف هذا ، بالإضافة إلى عدد كبير من المفقودين .. الحب يفعل هذا كله ؟ ليس الحب بل الحب الذى صار مقتًا .. و(عبير) لم تندهش على كل حال ، لأنها جربت مصائب الحب من قبل ، وقد رأت حربًا ضروسًا دامت عشر سنوات على أبواب (طرواده Troy) بسبب ذلك الفتى الرقيع (باريس) الذى اختطف الفاتنة الإغريقية (هيلانه) من زوجها ..

هنا ظهر البطل . لكنه لم يكن (جلجاميش) ..

كان (إنكيدو Enkidu) العظيم قادمًا .. هو يمثل لـ (جلجاميش) ما يمثله قول (أمل دنقل) :

- « تلك الطمأنينة الأبدية بينكما : أن .. سيفان سيفك .. صوتان صوتك .. « أنك إن مت للبيت رب .. وللطفل أب »

هكذا جاء (إنكيدو) ولوح بسيفه ثم طار فى الهواء ، قاصدًا عنق الثور .. ركب فوق عنقه وراح يحزه بالسيف .. صاحت (عشتار) فى غيظ بطريقتها الأنفية :

- « لا تحاول يا حيوان ! أنت لا تعرف مع من تتكلم ! »

قال وهو منهمك فى عمله :

- « أعرف أنك (عشتار) وأن على قتل هذا الثور ! »

لكن الثور يموج .. ويعتقد أنه فى إحدى مباريات (الروديو Rodeo) فى الغرب الأمريكى .. يهب منتفضًا فيطير (إنكيدو) فى الهواء بضعة مئات من الأمتار ثم يرتطم بالأرض فلما استعاد توازنه ووعيه ، كان أول ما رآه هو قرن الثور العملاق يتجه نحوه .. طعنة هائلة بمدية فى حجم برج القاهرة توشك على اختراقه ..

أغمض عينيه عارفًا أنها النهاية ..

حتمًا هى النهاية ..

* * *

4 ـ البطلان يصيران واحداً ..

لكن (جلجاميش) كان هنا ..

من كانوا معنا منذ البداية يعرفون ما هو (أسلوب جريفث فى الإنقاذ على آخر لحظة) .. لهذا اسمحوا لى ألا اشرحه ثانية منعًا للإملال .. فقط نعرف أن (جلجاميش) الجبار صاح صيحة ارتج لها العالم وهتف :

ـ « انهض يا (إنكيدو) ! لا تدعه ينل منك ! »

ثم وثب بدوره بدوره على الثور وبدأت مباراة (الروديو) الكونية تتخذ شكلا آخر .

وعلى الأرض أمسك البطلان المتقاربان فى الطول والحجم والقوة بجذع شجرة عملاق رفعاه عاليًا نحو الثور المنقض .. هكذا لعب الجذع دور رمح هائل الحجم ..

الدم يتساقط فى كل مكان وقد بلغ جنون الثور مبلغًا لا يمكن وصفه ..

هنا من جديد اعتلى البطلان ظهره ، وراحا يعملان سيفهما فى جانبى عنقه .. ومن اعلى تصرخ (عشتار) التى أعماها الغضب :

ـ « يا لكما من وقحين ! أتركا ثورى حالاً !! »

لكن عملية الذبح مستمرة والثور يقاوم بعنف ويتلوى ، لذا لف كل منهما خلصة من شعر الثور الطويل على ساقه كى لا يسقط أرضًا .. نافورة الدم تغرق الأرض وبلاد (أوروك) كلها وفى النهاية انفصل الرأس وهوى الجسد العملاق ليحدث أكبر قدر من الخسائر التى يعوضنا كونها آخر خسائر يحدثها هذا الوحش ..

مد (جلجاميش) يده فانتزع القلب .. لابد أنه كان فى حجم شاحنة .. ثم اقتطع شريحة ضخمة من اللحم ليلقيها فى وجه (عشتار) على سبيل النكاية ..

نظر لأعلى بحثًا عن الشريرة اللعوب فلم يجدها ..

هذا الصوت الأخير كان للثور وهو يتحشرج .. هذه هى المعاملة المثلى للثيران . لكن أين ذهبت (عشتار) ؟

كانت عند أبيها تخبره بالكارثة .. (جلجاميش) وصاحبه قد ذبحا ثورة العظيم .. الثور الذى كان يحتفظ به لإرهاب البشر قد تحول إلى شرائح (بفتيك) ممتازة ..

هذ المرة استشاط الأب غضبًا .. صحيح أنها تجنت على البشر لكن لابد من درجة ما من الحزم وإلا افلتت الأمور من نصابها ..

* * *

و (جلجاميش) نائم يحلم ..

أنتما قتلتما الثور !

أنتما ارتكبتما ذنب الذنوب ..

سوف تدفعان الثمن ..

(جلجاميش) نائم على ظهره يعانى صعوبة تنفس ، ويتمنى لو كان يحلم .. ولو كان يفيق .. ثم يخطر له أن هذه حقيقة تدور فى رأسه وليته يكتشف أنها كابوس ..

إن تلك الآلهة الوثنية مجتمعة فيما يشبه المحاكمة ، لكنها محاكمة صورية على كل حال لأن الحكم قد صدر فعلاً .. كل هذه الآلهة الوثنية فى الأساطير ظالمة حقود وكما نقول فى العامية - (تعمل عقلها بعقل البشر) .. حتى لو كانت (عشتار) قد تعمدت الإيذاء فإن قتل الثور كان خطيئة ..

أنتما قتلتما الثور !

أنتما ارتكبتما ذنب الذنوب ..

سوف تدفعان الثمن ..

أحدكما يجب أن يموت .. لكن من هو ؟ لا .. ليس (جلجاميش) .. إن (إنكيدو) نصف حيوان ويصلح للموت .. إذن هو (إنكيدو) .. لا .. ليس هو ..

★ ★ ★

رأيت أن (أنو) و(انليل) و(ايا) و(شاماش) السماوى قد اجتمعوا يتشاورون وقال (آنليل) لأنهما قتلا الثور السماوى وقتلا (خمبابا) فينبغى أن يموت ذلك الذى اقتطع أشجار الأرز من الجبال .

ولكن (أنليل) أجابه قائلاً : إن (انكيدو) هو الذى سيموت ، ولكن (جلجامش) لن يموت . ثم انبرى (شاماش) السماوى وأجابه حانقًا : ألأنك تطلع عليهم كل يومحتى صرت كأنك واحد منهم ؟

من النص الأصلى للملحمة (جلجاميش)

★ ★ ★

و(جلجاميش) نائم غارق فى العرق ، وعلى بعد خطوات منه يرقد (إنكيدو) منهكًا .. حولهما ما يدل على صخب الاحتفالات التى تمت قبل نومهما احتفالاً بنجاة البشر .. لابد أن (جلجاميش) التهم وحده ثلاثين كيلوجرامًا من لحم الثور المشوى .. لابد من كوابيس ..

لكنه كان يعرف أفضل .. كان يعرف أن هذا يحدث فعلاً .. وأن الحكم صدر على (إنكيدو) فعلاً ..

لذا ضرخ وهو ينهض من نومته المزعجة :

ـ « لا .. ليس (إنكيدو) .. لا!!!!!!!!!!!!!! ؟! »

(إنكيدو) أيضًا كان يحلم ..

كان يرى ذلك الرجل المسربل فى الظلال ، والذى يقتاده فى الصحراء إلى أرض الظلام .. أرض تتناثر فيها الجماجم .. حيث تيجان الملوك ملقاة ممرغة فى الوحل ، وحيث الحلى لا قيمة لها .. وحيث قوم يتمرغون فى الطين ويكتسون بالريش ..

ـ « أين نحن ؟! »

ـ « أنت فى مملكة الموتى .. أنت فى أرض (أرشيجال) ! »

وهى مملكة تذكرنا كثيرًا بـ (هيدز Hades) وملكها (بلوتو Pluto) فى الأساطير الإغريقية .. يبدو أن علم الأديان المقارنة ليس بالصعوبة التى نتخيلها ..

يجب أن نتوقف هنا لنلاحظ شيئًا مهمًا .. نعم كانت العقيدة الدينية فى بلاد الرافدين تعتمد على تعدد الآلهة ، لكن الإنسان ميال إلى التوحيد بالفطرة . لقد خلق ذهن إنسان الرافدين

عددًا لا حصر له من الآلهة الوثنية التى تتقاتل وتتزاوج وتموت (!!) وتدعو من هو أقدر منها (!!!) ، لكنه ـ طلبًا للتبسيط ـ قسمها إلى آلهة العالم السفلى (أنوناكى) وآلهة السماء (إيكيكى) ، أى أنه حاول بشكل ما أن يقترب من فكرة التوحيد . ويبدو أن الأخت (أرشيجال) كانت من (الأنوناكى) .

نعود لقصتنا ..

حين فتح (إنكيدو) عينيه مبللاً بالعرق من فرط هذا الكابوس ، كان قد أدرك يقيناً أنه سيموت ..

فى الصباح بدأت أعراض الحمى على (إنكيدو) ..

كأن التدهور سريعًا ، وقد احتشد الناس يحاولون عمل شىء للبطل الذى أنقذهم أمس .. وفكر البعض فى أن جروحه قد تلوثت .. لكن (جلجاميش) كان يعرف أن الأمر لعنة لا أكثر ولا أقل ..

كانت عيناه تدمعان لكنه يدارى هذا عن صاحبه ..

ولم يكن (إنكيدو) ينوى الموت فى تهذيب ككل الأبطال ، بل قرر أن يملأ الدنيا صراخًا مما جعل الحالة النفسية لـ (جلجاميش) غاية فى السوء ..

- « أنا .. أنا » - يقول (إنكيدو) - « الذى واجه الأسود والدببة والثعابين ، والذى صارع العمالقة .. أموت هذه الميتة المهينة الجديرة بالنساء ؟ »

- « أنا .. أنا » - يقول (إنكيدو) - « الذى الذى عاش فى الغاب وصارع وحوش البرية .. أموت بلا قتال ؟ »

- « أنا .. أنا » - يقول (إنكيدو) - « الذى ذبح (خومبابا) .. أموت من المرض ؟ »

الخلاصة أنه قضى يومين فى الشكوى واستمطار اللعنات بالذات على تلك الآنس (شامحات) التى لم ترها (عبير) قط ، لكنها عرفت أنها غانية وأن هذه ليست سبة ..

- « لماذا جاءت بى إلى الحضارة ؟ لماذا ؟؟ إننى ألعنك من كل قلبى يا (شامحات) .. ألعنك ! »

ثم يرى وجه (جلجاميش) صديقه المخلص جواره فيقول :

- « بل أباركك .. أباركك يا (شامحات) اللعينة لأنك كنت سبب معرفتى ببطل أبطال العالم وملك (أوروك) العظيم .. صديقى (جلجاميش) .. »

هكذا ظل فى هذه الضوضاء عدة أيام ، ولو لم أكن رقيق الحس لقلت إننى سعيد لموته .. من الممتعِ دائمًا أن تتخلص من رجل لم يكف عن الكلام أسبوعًا كاملاً ..

لما أغمض (إنكيدو) عينيه للابد أطلق (جلجاميش) صرخة ارتجت لها (أوروك) بأسرها ..

وعلى لحيته الكثة سالت دموع غزيرة بحق ..

البطل الذى وزع الموت على الجميع ، يرى للمرة الأولى الموت عن كثب وأمام ناظرته .. وفى أقرب صديق له ..

مزق ثيابه وارتمى على صدر صاحبه يعول ويبكى ..

وكانت هذه النقطة - موت الصديق - هى البداية الحقيقية للملحمة ..

* * *

5 ـ هكذا التقينا ..

عند المساء جاء (كامل) ومن معه ..

كان (جلال) و(مجدى) قد غادرا العمل ، وارتديا ثيابهما العادية .. وقد ابتعدا فى الشارع المظلم بضع خطوات كى يصيرا عند المنعطف .. والمنعطف مهجور كأنه فلاة ..

أشار (كامل) للرجال الذين معه ، ثم اتجه الجميع فى أثر الشابين ..

(كامل) لا يتمتع بأية مهبة فيما عدا شراسته الشديدة ، وكونه كان بطل كمال أجسام قديمًا .. لقد كون عضلات ممتازة لكن الدهن غطاها مع التوقف عن التدريب المنتظم .. هكذا اكتسب ذلك المظهر الشرس الخاص بـ (الأبضايات) حيث العضلات والكرش والصدر المنتفخ . فلا هو حاز رشاقة ناحلى الجسد ، ولا الاتساق الجسدى لأبطال كمال الأجساد المواظبين على التدريب .. إنه غول لا أكثر ولا أقل .. والرجال الذين معه لا يتفوقون عليه فى الجمال ..

كان الشابان يبتعدان حينما ناداهما بصوته الغليظ الفظ ..

نظرا للوراء ثم قررا لسبب أو آخر أن يواصلا المشى ..

لهذا ناداهما مرة أخرى وألحق بندائـه سبة مشينة .. لهذا صار محتمًا أن يتوقفا ويواجها ..

- « هذه من أجل ما تعرف أنك فعلته !! »

لم يكن هذا تفسيرًا .. فهو لم يعط أى سبب مفهوم ، لكنه على كل حال إنهال باللكمات على (جلال) .. انهال حتى انفجر الدم من فمه ، ولم تكن لكمة الرجل تختلف فى شىء عن تلقى ضربة بدبشك البندقية ..

لكن (جلال) ليس ضعيفًا .. لن ننسى أن قوامه الرياضى كان أول ما شد انتباه (لمياء) له . لهذا رفع قدمه ودفنها فى كرش الرجل .. وسادة الدهن التى تسمح بالمزيد ..

هوى احدهم على أذنه بقبضة معدنية صغيرة ، فشعر بأنه سيفقد وعيه .. وآخر دفن ركبته فى بطنه ، فى نفس اللحظة انحنى فى الوقت المناسب ليلتقى ضربة بسيف اليد على مؤخر عنقه .. هكذا تقاليد المعارك ، فكأن منسق معارك السينما المصرية الشهير (الطوخى) هو من رسم تفاصيل هذا العراك ..

هنا بدأ (مجدى) يدافع عن صاحبه .. (مجدى) شرس

وقوة لا يستهان بها .. حينما ترى وجهه الذى يذكرك بوجه دب أشهب تعرف على الفور أنه ليس خصمًا هينًا ..

لقد ضرب رأسين ببعضهما فسقط الرجلان أرضًا وهما يئنان .. ثم استدار للثالث .. آخ ! من الخطأ أن تضرب فك رجل يبدو بهذه العصبية وهذه الخطورة .. لقد أخرج الرجل من مكان ما مطواة من مكان ما مطواة من مكان ما مطواة من طراز (قرن الغزال) المحرم دوليًا ، وهو يعرف كيف يفتحها بيد واحدة كما يجيد ذلك كل من تمرس على القتال فى الأزقة ، وأولجها فى بطن الفتى .. وسرعان ما هوى (مجدى) أرضًا بلا حراك ..

- « يا لك من مجنون ! قلت لكم أن تكتفوا بضربهما !! »

قالها (كامل) وقد أدرك أن الدرس قد تحول إلى جريمة .. وشد الأذن الذى طلبه البك قد أدى لانتزاع الأذن بأكملها .. كانت المهمة تأديب الولد لا اكثر ولا أقل .. والآن .. لحسن الحظ أنهما لا يعرفانهم .. هكذا ترك الرجال الشابين الراقدين على الأرض وابتعدوا راكضين ..

يزحف (جلال) نحو صاحبه .. يدنو منه ..

رأى الجرح فى بطن صاحبه وأدرك أنه بليغ .. فتح فمه ليصرخ منه دم كثير ..

همس لـ (مجدى) وهو يرفع رأسه قليلاً :

- « صبرًا يا (مجدى) .. سآتى بنجده .. »

لكن (مجدى) لا يرد .. صدره يعلو ويهبط بتلك الطريقة المتحشرجة ، وعيناه شاخصتان ..

تبًا للظلام ! تبًا لهذا الظلام ! إنه يعوق كل شىء .. من فضلك لا تمت لا تمت لا تمت لا تمت لا تمت ..

عيناه زجاجيتان .. إنه يغوص .. يغوص فى ذلك البحر الذى لم يعد منه أحد ..

رفع (جلال) رأسه للسماء وصرخ .. صرخ ..

★ ★ ★

(جلجاميش) يجلس وحده يتأمل مياه النهر (دجلة) ويتذكر ..

لقد نمت لحيته وصار شعره مشعثًا يتدلى إلى كتفيه .. أما ثيابه فصارت أسمالاً بالية ..

يتذكر كيف عرف (إنكيدو) أول مرة ..

سوف نعرف من هو (إنكيدو) .. ولكن .. لاحظة .. كيف نعرف (إنكيدو) ونحن لم نعرف (جلجاميش) أصلاً ؟

★ ★ ★

فى عصرنا هذا :

كانت الحفريات تجرى فى موقع نهر الفرات القديم قبل أن ينشق النهر ، حينما وجد العلماء الألمان تلك المعالم التى تدل على وجود مقبرة .. مقبرة ملك ..

تبدأ الحفريات وتتقدم ، ويقول قائد الفريق :

- « كل شىء هنا يوحى بأنه قبر (جلجاميش) نفسه ! »

قال زميله باسمًا :

- « أنت تعرف أنها مجرد أسطورة .. »

- « أسطورة نعم .. لكن (جلجاميش) شخصية حقيقية واسمه مدون فى سجلات الملوك .. لامشكلة فى هذا .. انت تعرف أن (روبين هود) وجد فعلاً ثم نسجت حوله عشرات الأساطير .. الأسطورة تقول إن الملك (جلجاميش) دفن تحت نهر الفرات القديم .. كل المعالم التى ذكرت فى الملحمة موجودة هنا بدقة .. وشبكة الرى المعقدة هذه .. »

ثم نظر إلى الأفق وهمس فى انبهار :

- « لقد بنى هؤلاء البابليون (فينيسيا) حقيقية وسط الصحراء !! »

★ ★ ★

وكان (جلجاميش) يتذكر صداقته التى حسبها أبدية مع (إنكيدو) ..

(جلجاميش) !

من مثل (جلجاميش) العظيم ؟

ملك (أوروك) القوى المسيطر المهيب .. الحق - يجب أن نكون صرحاء - لم يكن (جلجاميش) من أكثر الملوك رحمه ورفقًا ، بل كان قاسيًا طاغية .. فى هذا العصر على كل حال كان عليك أن تكون لينًا تؤكل بسهولة ، أو تكون وحشًا .. لم تكن هناك حلول وسط ..

هكذا اتجه الرعايا البائسين يطلبون العون من (آنو) الذى عرفنا أنه أبو (عشتار) .. وقد رق قلبه لهم ..

قال لهم :

- « لا يفل الحديد إلا الحديد .. أنا سأصنع لكم واحدًا فى ذات قوة وسطوة (جلجاميش) .. »

هكذا خرج (أنكيدو) إلى الوجود ..

لانعرف السبب فى أنه جاء بهذا المظهر ، لكنه جاء العالم أقرب إلى الوحش .. كان ضخم العضلات ، مكسوًا بشعر كثيف

يجعله أقـرب إلى الدببـة .. وتقاطيع وجه الغليظة الصارمة تجعل هذا التشابه قويًا فعلاً ..

يعيش هذا الخلوق شبه المتوحش فى الغابـة . سوف نعرف أنه يأكل اللحم نيئًا ويشرب الماء وقد ركع على أربع ومد فمـه فى النهر كما تفعل الوحوش ، بل كان يقتات بالأعشاب كذلك . أما عن شرب اللبن فطريقته ثورية بعض الشىء تعتمد على النوم على ظهـره وشرب اللبن مباشرة من ضرع البهيمة ، كما نشرب نحن زجاجة مياة غارية ، لكن من رأوه قالو أن له سحرًا خاصًا .. هذه الطبيعة البرية الشرسة والقوة الهائلة جعلتا له جاذبية معينـة تختلف عن زيف الحضارة وتعقيداتها ..

لا أعرف فى الحقيقة الرمز الصعب الذى أراد الفنـان (الرافدينى) أن يشير إليه عن طريق (إنكيدو) .. هل هى معركة التحضر ضد التوحش ؟ قسوة المدينة أمام جمال البدائية ؟ لو كـان هـذا صحيحًـا فلمـاذا سيصير صديق (جلجاميش) ؟ هـل هذا يعنـى أن البدائيـة إذا اجتمعت مع التمدين تصير لهما قوة عظمى ؟ يحتاج التفسير إلى من هم أذكى منى ـ وهم كثيرون بحمد الله ـ لفهـم هـذا العلاقـة .. أنا هنا أحكى ما حدث فحسب ..

عاش هذا الوحش الساحر فى الأدغال طويلاً ، ويبدوا أن (آنو) قد نسى الغرض من وجوده .. إلى أن جاء اليوم الذى رآه فيه صبى صغير يلعب فى الغابة .

هرع الصبى إلى أبيه الصياد مذعورًا يخبره بما رآه ، ويبدو أن الصبى قد قرأ كثيرًا من قصص المذعوبين وعفاريت الغابات لذا اصر على أن يرى أبوه هذه الأعجوبة ..

خرج الصياد وتوارى بين الأغصان يراقب مورد الماء .. بالفعل كان هذا الشىء الذى يركع على أربع ويشرب الماء من الجدول غريبًا جدًا .. مزيجًا من وحش وإنسان ..

وكانت هناك مشكلة أخطر .. لقد مر غزال قرب (إنكيدو) فوثب على قدميه وسرعان ما كان يركض خلف الغزال بسرعة البرق ، ثم وثب فوقه وهشم عنقه ، وأمام الصياد المذعور راح يفسخ جسد الحيوان ويلتهمه وهو اقرب للحياة منه إلى الموت ..

ـ « يا للكارثة ! »

هذه كانت من الصياد الذى أردف وهو يحك رأسه :

ـ « هذا الوحش يمكن أن يقضى على كل الصيد فى الغابة خلال أسبوع .. »

أضف لهـذا أن الغابة صارت مكانًا غير مأمون .. لا أحد ـ وأنت توافقنى ـ يحب أن يضل طريقه ليلاً ليجد هذا الشىء أمامه يرمقه فى ضوء القمر ..

ثم فكر الصياد حينًا وقال :

ـ « يجب أن نعرفه بـ (شامحات Shamhat) ! »

كان هذا هو الوقت المناسب كى يعرف (إنكيدو) هذا الاكتشاف الهائل المدعو بالمرأة .. وقد قدر الصياد أن فاتنة المعبد (شامحات) سوف تعرف كيف تعيده إلى التحضر .. لا أعرف كيف يمكن لفتاة تدعى (شامحات) أن تكون فاتنة لكن كل شىء يحدث فى الأساطير ..

لا نعرف كذلك كيف استطاع الصياد الفقير ترتيب هذا اللقاء ، لكن الأسطورة تقول أنه تم .. وإن (شامحات الغانية ـ وهذه ليست سبة كما قلنا ـ أوقعت الوحش الغرير فى حبائلها .. إن لقاء الرجل بالمرأة لأول مرة مشهد يتكرر كثيرًا فى التراث الإنسانى . وقد هام (إنكيدو) حبًا بهذه المخلوقة الفاتنة وترك الصيد يسمن ويترعرع ، ولم يعد يخيف كائنات الغابة ..

كم قضى فى هذا الحلم ؟ قضى أسبوعًا واحدًا !! ثم أصابه

الملل كأى زوج معاصر ، يشعر بأن (شامحات) ثرثارة أكثر من اللازم .. لحوح كثيرة المطالب أكثر من اللازم .. طاغية أكثر من اللازم .. بدينة أثر من اللازم .. إنها تمنحه حبها لكنها تريد كل شىء فى حياته مقابل ذلك ..

وهكذا صحت (شامحات) من نومها يومًا لتجد أن (إنكيدو) عاد إلى الغابة وقد اشتاق إلى مصارعة الوحوش .. لسان حاله يقول : « كده أجدع من الحريم » ..

لكن المسألة ليست مزاحًا ، والخروج من الحمام ليس كالدخول فيه .. لقد نفذت منه وحوش الغاب ، وكانت الأسود تفزع لرؤيته فى الماضى بسبب قوته ، أما اليوم فهى تفزع من رائحة العطر التى تفوح منه ..

وأدرك الوحش الجميل الحقيقة .. هو لم يعد وحشًا بعد ما عرف المرأة ..

هكذا عاد لها وقال فى استسلام :

ـ « أنا تحت أمرك يا مدام .. »

قالت له (شامحت) :

ـ « تعال معى إلى (أوروك) .. أنت و(جلجاميش) من نفس العينة لكنك قادر على هزيمته بالتأكيد ، ولسوف تصير ملكًا .. »

فى البداية ألبسته قطعة من ثيابها يغطى بها صدره ذا الشعر الكثيف فقط ليبدو آدميًا إلى حد ما .. وعلمته بعض دروس اللياقة . كيف يشرب اللبن دون أن ينام كالميكانيكى تحت الماعز ، وكيف يطهو الطعام قبل أكله .. كلا لم تشتر له هاتفًا جوالاً لأنه لم يكن معروفًا وقتها ..

الآن يدخل (إنكيدو) لسواق (أوروك) مع (شامحات) ..

★ ★ ★

وقف الناس مذهولين يرقبون هذا العملاق المخيف ترتج له الأرض ارتجاجًا .. وتصايحوا :

ـ « هذا رجل الغاب .. هذا (أنكيدو) المرعب »

عضلاته توشك على الانفجار من تحت صدريته الضيقة التى كانت لـ (شامحات) اصلاً .. وعيناه ينبعث منهما الشرر .. وحين رفع ذراعه خيل إليهم أنه ثبت جذعى شجرتين إلى كتفيه ..

ثم نظروا إلى الناحية الأخرى فرأوا (جلجاميش) ..

ملك مدينتهم المخيف قادم ..

وكانت نظرة واحدة بين الرجلين فتم تبادل الرسالة كاملة : أنا وأنت ..

لـم يضيعـا الوقـت فـى التهديـدات علـى غـرار القصـص المصورة : الويل لك .. بل الويل لك أنت .. لقد جئت إلى حتفك .. هاها .. ستدفع الثمن .. الخ ..

بل فهما على الفور بعضهما ، وانقض (جلجـاميش) على (إنكيدو) ..

★ ★ ★

6- فى غابة الأرز..

كان الصراع عاتيًا مخيفًا ..

نرى دومًا فى أفلام الوسترن الغربية صراع البطلين بالمسدسات فى الشارع الذى صار شارع أشباح ، ونرى فى أفلام (الفتوات) المصرية كيف تخلو الحارة عندما يتقابل العملاقان بالنبابيت .. كان المشهد شبيهًا بهذا فيما عدا أن حجم العنف كان أكبر بكثير ..

الصيحات تدوى كأنها صيحات الجبابرة ، واللكمات لها صوت يصم الآذان .. من يسقط منهما يهدم عدة أكواخ فى سقطته .. ثم ينهض ليحمل غريمه فى الهواء ويقذف به على مجموعة أكواخ أخرى ..

عرق .. دم .. غبار .. لعاب .. غبار .. دم .. عرق ..

كان الناس يرتجفون خوفًا بينما العملاقان يفتكان ببعضهما .. لكن القوى متقاربة .. ولهذا طال القتال كثيرًا جدًا .. وفى النهاية سقط العملاقان منهكين على الأرض ..

زحف (جلجاميش) حتى وضع ركبته على عنق خصمه .. وصاح بصوت مزلزل برغم تعبه :

- « من الأقوى ؟ »

- « (جلجاميش) !! »

قالها (إنكيدو) الذى لم يعد قادرًا على الاستمرار .. وعلى الفور سقط (جلجاميش) جواره لاهثًا .. ثم انفجر الجبلان يضحكان ويضحكان ..

ـ « أنت قوى أيها الرجل البرى .. لقد أتعبتنى كثيرًا ! »

ـ « بحق (شاماش) .. وأنت تقاتل كجبل دبت فيه الحياة ! »

ـ « قدموا لنا عصير البلح المختمر أيتها النسوة !! »

قالها (جلجاميش) آمرًا فهرعت النساء مذعورات يجلبان الجرار .. إن هذين العملاقين يحتاجان ليرويا ظمأهما إلى أكثر من جرة واحدة .. كأن الجرة كوب ماء واحد بالنسبة لنا .. والجرة تخرج من الجلد فى اللحظة ذاتها على شكل عرق غزير .. العملاقان يجرعان ومن حين لآخر ينفجران فى الضحك ..

(ما محبة إلا بعد عداوة) .. هذا هو ما حدث بالضبط .. لقد وجد (إنكيدو) رجلاً يماثله فى القوة ، ووجد (جلجاميش) الخصم الذى استمتع بقتاله .. كما قابل (روبين هود) (جون الصغير) فى القصة الشهيرة ، وأوسع كل منهما خصمه ضربًا بالنبوت ، وكانت النتيجة أنهما صارا صديقين لا يتفارقان ..

ولم يمر اليوم حتى كان (جلجاميش) قد اصطحب صاحبه إلى (ماما) .. أم (جلجاميش) صغيرة الحجم الرقيقة المذعورة التى رأت هذا الجبل يدخل إليها .. فقال لها (جلجاميش) :

- « هذا أخى ! إنه ابنك من الآن فصاعدًا ! »

ومن الغريب أن هذه الصداقة جعلت (جلجاميش) يتغير .. صار رفيقًا بشعبه ، ومن الأغرب أن الناس أحبوه وصار بطلهم ..

★ ★ ★

بعد انتهاء المشاجرة التى دارت بينهما فى الحارة احتضن (جلال) خصمه (مجدى) وراحا يضحكان .. كانا مبتلين تمامًا بالعرق والماء الذى رشه عليهما عم (سعد) بائع الكشرى فى محاولة للتفريق بينهما ، خاصة أنه كان يخشى ان يحطم أحدهما زجاج عربته ..

ضحك أولاد الحارة بدورهم وذهب من جلب لهما (شوبين) من عصير القصب ..

قال (مجدى) وهو يجرع السائل الرغوى البارد لذيذ المذاق :

- « لقد أتعبتنى يا عم (جلال) .. من يرك لا يعتقد أنك بهذه الصلابة .. »

ـ « يوضع سره فى أضعف خلقه .. »

كانا طالبى جامعة ومن العار أن يتشاجرا كل هذا الشجار من أجل فتاة اعتقد أحدهما انه تحبه واعتقد الآخر الشىء ذاته ..

وفى هذا اليوم ـ وهما فى السينما يشاهدان ذلك الفيلم الهندى ـ أخبره (جلال) أنه يعمل فى محطة بنزين لسداد نفقاته ..

قال له (مجدى) فى حسد :

ـ « أنا أبحث عن عمل .. يبدو أن الحال واحد .. »

كان (أميتّام باتشام) يوجه ركلاته لعشرة من الكومبارس الهنود التعساء ضخام الجثة على الشاشة لكن نفسه لم ينقطع بعد حتى ظل قادرًا على الغناء .. قال (جلال) وهو يتابع الفيلم :

ـ « غدًا نقابل مدير المحطة .. أعتقد أنه يحتاج لواحد مثلك لفترة المساء .. »

* * *

إن أبطال الملاحم طموحون .. هذا متوقع .. وإلا فكيف صاروا أبطال ملاحم ؟

إن إيثار السلامة طريق ممتازة كى تنعم بالعودة لدارك ، والتهام البطيخة التى اشتريتها .. هذا هو نوع المغامرات الذى يمكن للمرء أن يخوضه .. أما بالنسبة لـ (جلجاميش) فالأمر يختلف ..

هناك فى غابات الأرز القريبة يوجد وحش مخيف يدعى (خومبابا Humbaba) .. نعم .. لم لا ؟ كل شعب كانت له وحوش أساطيره .. هناك جيش كامل منها فى الأساطير الإغريقية ومثلها فى اساطير العرب والفراعنة عندهم (الملتهمة) .. فلماذا عن السيد (خومبابا) ؟

إنه شىء له مظهر بشرى ومهمته حماية غابة الأرز هذه ، لكنه يصرخ أعاصير ، ويطلق النار من فمه .. وله سبعة جلود تقيه الحراب والسيوف . كالعادة يتكرر الرقم سبعة بإلحاح فى كل الثقافات القديمة ..

قال (جلجاميش) :

ـ « أنا سأواجه (خومبابا) وأقتله ! »

كان (إنكيدو) خبيرًا بالغابات كما قلنا ، وكان يعرف بالضبط ما عليهما أن يتوقعاه .. لكن (جلجاميش) كان متحمسًا ولم يزده التخويف إلا إصرارًا ..

هكذا مضى (جلجاميش) حاملاً معه فاسًا وقال لصاحبه :

- « بك أو بدونك أنا ذاهب .. لك أن تختار .. »

قال (إنكيدو) وقد شعر بالحرج :

- « ليكن .. أنا معك .. »

وتسلح الرجلان واتجها معًا إلى غابة الأرز .. شىء فى مظهرهما كان يوحى بالعظمة والخلود ، وهو ما يختلف بالتأكيد عن منظر مجموعة بلطجية تحمل (السنج)متجهين إلى عركة فى السلخانة عندنا ..

تجمع الناس من كل صوب يودعون (جلجاميش) الذى صار محبوبًا فجأة قالوا له ناصحين :

- « لا تتخل عن (إنكيدو) أبدًا فهو يعرف كيف يجد هذا المدعو (خومبابا) .. كن حذرًا »

وبكت الحسناوات وهن يرين هذين البطلين ذاهبين للهلاك الأكيد ..

أما هـذه العجـوز التى تحـرق البخـور على سطح دارهـا فهى أم (جلجاميش) .. لقد قابلناها من قبل .. إنها الآن تقف مبتهلة لـلآخ (شـاماش Shamash) الـذى يشـبه (أبوللو) عند الأغريق .. أعد لى (جلجاميش) سالمًا فلن أستطيع إنجاب شخص آخر بهـذا الحجم .. أنا نفسى كلما رأيته اشعر بالذهول لأنه خرج من بطنى ..

وهكذا يواصل الصديقان رحلتهمـا نحـو الغابـة وهـى رحلتهما نحو الغابة وهى رحلة تستغرق ثلاثة أيام ..

وفى النهاية يبلغان موضع المعركة ..

هنا نكتشف شيئًا مهمًا فى (جلجاميش) .. إنه ينام كثيرًا جدًا .. طيلة الملحمة ينام كالقتلى ، وكانت هـذه هـى البداية مما دفع (إنكيدو) إلى إيقاظه بشىء من العنف ..

- « تذكر الأمجاد .. جئت هنا كى تقتل (خومبابا) لا لتنام فـى الظل »

وكان (خومبابا) قادمًا .. لقد نزع جلدًا من جلوده السبعة على سبيل الاسترخاء ، وهكذا - تزعم القصـة - صار صالحًا لأن تخترق النصال جسده ..

وتدور معركة شرسة لن أطيل وصفها .. لأنك لن تتخيلها مهما بلغت دقة وصفى .. آه لو كنت معى لترى كيف استطاع (جلجاميش) العظيم أن يقطع رأس هذا الوحش! ليس من سمع كمن رأى ..

لقد خاض البطلان هذه المعركة كأنهما رجل واحد .. وإن ظهر أن (جلجاميش) هو الأقوى والأكثر تأثيرًا ..

* * *

- « تلك الطمأنينة الابدية بينكما : أن .. سيفان سيفك .. صوتان صوتك ..

« أنك إن مت للبيت رب .. وللطفل أب »

* * *

وأخذا يتضرعان إلى الإلهة « شاماش » بتعينهما على الخلاص من الهلاك فاستجابت لهما ، وانقلبت الآية حيث أهاجت (شاماش) الرياح العاتية وساقتها على (خمبابا) فمسكت به وشلت حركته ، فاستسلم لهما .

من النص الأصلى لملحمة (جلجاميش)

* * *

وحينما انتهى القتال وقف (جلجاميش) بعضلاته اللامعة من العرق والسيف البتار فى يده ، وراح يلهث .. كانت هذه هى اللحظة التى رأته (عشتار) / (عبير) فيها وقررت أن تهديه لنفسها ..

وأنت الآن تعرف باقى القصة ..



7 ـ إنه المـوت ..

لعدة أيام لم يتحرك من موضعه ..

كانوا يدسون الطعام فى فمه دسًا .. وهو لا يلاحظ .. ربما كان يمضغ بحكم الفطرة لا أكثر ..

كانت امه تبكى حين ترى أن ابنها (جلال) الشاب المليء بالحيوية قد تحول إلى هذا النبات فاقد الشعور .. وقد اقترحوا أن يراه طبيب نفسى ، لكن بالنسبة لبيئتها كان الطبيب النفسى يعنى أن ابنها مجنون ..

له عدة ايام لم يذهب فيها إلى الكلية ولا إلى عمله ..

ما اعتقده الناس ـ وهو صحيح ـ أنه يشعر بمسئوليته الكاملة عن موت (مجدى) . لقد كانت المشاجرة مشاجرته والتحرش هو المقصود به .. لكن (مجدى) تدخل ودافع عنه ، وكانت النتيجة هى أنه تلقى تلك الطعنة الغادرة والتى لم ينهض بعدها قط .. لقد توفى أثناء نقله بعربية الإسعاف ..

كانت اسئلة رجال الشرطة عديدة ، لكنه لم يملك أية إجابة .. هو لا يعرف من هاجموه ولا لماذا هاجموه .. الرجل الذى

هاجمهما قال « هذه من أجل ما تعرف أنك فعلته !! » . لكن (جلال) لايعرف أى شىء فعله . وكلام الرجل يقول بوضوح إنه هو المذنب .. لكن بأى شىء ؟

فقط يوجد شىء واحد مؤكد ، هو أن (مجدى) لم يكن هو المقصود على الإطلاق ..

عرض عليه رجال الشرطة عشرات الصور لقطاع الطرق والمسجلين خطرًا والبلطجية فى هذه المنطقة ، وكل وجوههم تتشابه لكنه لم يستطيع قط أن يعرف من فعلها .. على الأرجح لم يكن الوجه بين تلك الوجوه .. وفى النهاية حفظت القضية ضد مجهول ..

ما اعتقده الناس ـ وهو صحيح ـ أنه يشعر بمسئوليته الكاملة عن الموت (مجدى) . لكن شعورًا أفظع كان يعذبه ويرفهقه .. وما كان ليعترف به لأحد ..

إنه خائف .. خائف من الموت ..

هل هو بهذه القسوة ؟ لا .. لكن الأمر أقوى منه ..

لقد رأى صاحبه الملىء بالحيوية وقد رقد على أرض الزقاق ، والدم يخرج من الثقب فى بطنه .. كأن الحيوية والحياة تسربتا من هذا الثقب .. لماذا لايرد ؟ لماذا لايلقى دعاباته العنيفة ؟

انهض بالله عليك ! انت تخيفنى !

فكرة أن الصديق قد رحل إلى عالم الحقيقة .. عرف مالم يعرفه أى شخص بعد ..

وفكرة انه هو بالذات ـ (جلال) ـ سوف يقطع هذه الرحلة حتمًا يومًا ما ..

كل هذه الأفكار أصابته بهلع حقيقى .. هلع يمتزج باكتئاب .. وقد شعر بذات الشعور الفلسفى (الكافكاوى) العتيق : نحن محكوم علينا بالإعدام ، ومهما بدلت ثيابنا ومهما اتسعت زنزانتنا ، فنحن فى الحقيقة نجلس فى غرفة المحكوم عليهم بالإعدام ونلبس ثياب الإعدام الحمراء ، بانتظار صوت الخطوات فى الردهة ودخول السجان ومدير السجن والشيخ أو القس .. كل منا (رجل ميت يمشى Dead man walkin') كما يقول الأمريكيون عن المحكوم عليهم بالإعدام .

الأسوأ أنه شعر بمقيت خالص لنفسه لأن حزنه لم يكن خالصًا من أجل (مجدى) ..

* * *

(عبير) / (لمياء) عرفت الخبر متأخرًا جدًا ..

كانت تتردد على محطة البنزين مرة من حين لآخر لتلقى نظرة على فتاها ، لكنها لم تلقه قط ..

فى النهاية ضغطت على كبريائها .. أنزلت زجاج النافذة الأسود حتى نهايته لتسمح للعالم الخارجى المنحط (البلدى) بأن يدخل .. وسألت احد عمال المحطة عن ذلك الفتى .. ذلك الفتى طالب الحقوق .. ماذا كان اسمه ذلك الصعلوك ؟

ـ « تعنين (جلال) يا هانم .. أعتقد أنه لن يعود .. »

تظاهرت بأنها غير مصدومة .. وسألت فى تعال :

ـ « لماذا ؟ »

ـ « إنه محزون من أجل صديق عمره (مجدى) .. يبدو أن بعض البلطجية تحرشوا بهما ، ودافع (مجدى) عن (جلال) لكنه تلقى مطواة لم يصح بعدها .. »

مطواة وبلطجية ! لن تكون هذه مصادفة أبدًا ..

ـ « أوه .. خسارة ! وهل قبضوا على هؤلاء البلطجية ؟ »

ـ « لا يا هانم .. لقد ذهب دم الفتى هدرًا .. »

وانطلقت بسيارتها عائدة لبيتها .. كانت دمعة توشك على أن تفلت من عينها .. لقد فرقت الصديقين .. (كامل) فعلها بالتأكيد مهما أنكر .. وهى السبب ..

تذكرت وجه (مجدى) قوى الملامح الشرس قليلاً ، والذى يذكرك بوجه دب .. وارتجفت .. لن يكون ثانية ..

لكن أباها ـ حين صارحته بما تعتقده ـ لم يبد مندهشًا أو غاضبًا .. كان يعرف هذا كله .. لقد صارحه (كامل) بالأمر وهو يرى أن (كامل) هذا أكبر حمار على ظهر البسيطة .. يربت على ظهر قط فيكسره ، ويقتطف زهرة فيقتلع المرج كله .. لقد ورطهما فى عمل خطير ، لهذا وجد أن أفضل شىء يمكن عمله هو الصمت .. لا أحد يعرف رجاله ، ولا أحد يعرف أنهم رجاله ، ولا أحد يعرف علاقته بالموضوع .. لا يوجد ما يورطه سوى آنسة هستيرية حمقاء كانت الفكرة فكرتها منذ البداية ..

وأضاف الأب فى تهكم :

ـ « على كل حال لقد شددنا أذن ذلك الفتى الوقح الذى كان يضايقك .. صحيح أننا اقتلعنا الأذن ذاتها ، لكن هذا لا يمنع أن المهمة نجحت ! »

لم تعرف ما تقول .. إن كلامه صائب إلى حد ما .. والقتل لم يكن مقصودًا على كل حال .. لكنها قررت أن تبدى عصبية

على سبيل التنمر .. ضربت الأرض بقدمها ثم أطاحت بالهزيمة الثمينة التى تتوسط البهو فهمشمتها إلى ألف قطعة .. ثم هرعت إلى غرفتها ..

ستبكى بعض الوت ثم تنسى الأمر ..

هذا ما انتوته .. وهى ليست بالطريقة السينة لإمضاء الأمسية ..

* * *

(جلجاميش) أيضًا قضى ليالى طويلة يبكى ويرتجف ..

كان يتذكر كل خلجة وكل كلمة لـ (إنكيدو) فيرتجف من جديد كأنه محموم .. لم يصدق أن هذه الحيوية قد ماتت بهذه البساطة ..

والأدهى أن الدور قادم إليه .. ربما بعد يوم .. ربما بعد قرن .. لايهم .. سوف يمرح الناس ويضحكون ويتشاجرون ، بينما هو وحده فى القبر منتفخ البطن يتسلى الدود بجثته ..

ثم الرحلة .. الرحلات جميلة بشرط أن تعرف إلى أين ..

لكن لحدًا لم يعد من هناك قط ، ولايمكنك أن ترسم خارطة توضح مسارك أو أماكن المبيت ، أو كم خانًا يقدم عشاء طيبًا .. هل ستكون أنت أنت وقتها أم ستكون واحدًا آخر ؟

والسؤال الأهم : حينما تعرف الحقيقة .. هل ستعرف أنك عرفت ؟

هل ستعرف أنك عرفت ؟

هل ستعرف أنك عرفت ؟

كان يشعر بالجنون يعصف بعقله ..

هذا هو (جلجاميش) بطل الأبطال وملك (أوروك) يجلس بلا حراك ينتظر الموت .. خائفًا حتى الموت من الموت .. هو الذى صارع الأسود والثعابين وأعتى الأبطال أرهقته فكرة رؤية الموت عن كثب .. لقد كان (إنكيدو) بمثابة (هو آخر) .. وقد مات (إنكيدو) لهذا صارت فكرة الموت قريبة منه جدًا ..

يتأمل انعكاس وجهه فى الماء .. يتأمل عضلات ساعديه وربلتى ساقيه .. وتمضه للابد فكرة أن هذا كله سيصير عفنًا فترابًا ..

ماذا رأيت وماذا عرفت يا (إنكيدو) ؟ لماذا لا تخبرنى ؟

لو استطعت ان ألقاك خمس دقائق لا أكثر .. فقط عندما سأعرف كل شىء ..

و(عشتار) / (عبير) تراقبه .. إنها تعرف أنها تسببت له فى تلك الكارثة .. هى التى جعلت اباها يطلق الثور الأسود، وهكذا حدثت تلك التفاعلات التى أدت لموت صديقه الصدوق، لكنها بشكل ما تعرف أنه استحق هذا .. وكانت تعرف ما سيحدث ..

إن (جلجاميش) بطل ملحمى، ولن يظل جالسًا هكذا ..

لو انتهت القصة عند هذا الحد لما سمعنا عنها حرفًا .. لكنها كانت تعرف أن الكارثة قادمة وأن عذابه الحقيقى فى الطريق ..

هنا جاء وقت رحلة البحث الأسطورية ..

لابد من واحدة لكل بطل ملحمة .. هذا شىء محتوم .. رحلة لكل من (أوديسيوس) و(هركيوليس) و(رستم) و(إيزيس) و .. و .. لابد من رحلة طويلة وأهوال .. من أجل هدف ..

فيما بعد سيضع أحد كتاب السيناريو - (جوزيف كامبل) - تفاصيل هذه الرحلات المحتومة فى كل أسطورة لدى أى شعب، والتى تتكرر بإلحاح بشكل يدل على أنها موجودة فى لاوعينا الجمعى، وكما وصفه (يانج Jung) تلميذ (فرويد)

المشاغب، والذى درس الأساطير الشعبية كما لم يدرسها أحد قبله ، كل لم يدرسها أحد قبله . كل هذه الأساطير تأتى من نفس النبع الذى يحمله كل منا داخل عقله . وهى تأخذ الخطوات التالية :

1 ـ البطل فى العالم العادى .

2 ـ البطل يلتقى دعوة للمغامرة تقدمها له شخصية غير نمطية هى (المعطاء) (غالبًا عجوز أو قزم) .

3 ـ رفض النصيحة أولاً ثم قبولها .

4 ـ اجتياز البوابة الأولى .

5 ـ اختبارات وحلفاء وأعداء .

6 ـ الاقتراب من الكهف العميق ، حيث مركز المعاناة .

7 ـ المعاناة العظمى .

8 ـ الجائزة (الحصول على السيف ـ التفاحة ـ الجوهرة .. إلخ) . الآن صار بطلاً حقًا .

9 ـ طريق العودة . يحاول خصومه منعه من العودة بمكاسبه .

10 ـ انتصار جديد يطلقو عليه اسم (البعث) .

11 ـ العودة بالإكسير . وهذا الإكسير قد يكون الكنز الذى دخل الكهف لأجله ، وقد يكون الكنز الذى دخل الكهف لأجله ، وقد يكون الحكمة ، وقد يكون العودة للوطن سالماً بقصة جيدة .

لو طبقت هذه الخطوات على (على بابا) أو (الشاطر حسن) أو (أوديسيوس) أو (هركيوليس) أو أى بطل ملحمى تعرفه ستدرك أنها صحيحة ..

إذن لا بد أن يمر بطلنا بهذه المراحل ..

لقد جاء أحدهم إلى (جلجاميش) العظيم ووضعه يده على كتفه وقال :

ـ « أنت حزين مهموم لأنك تهاب الموت .. لكن الخلود موجود أيها العظيم (جاجاميش) .. هناك من يعرف سره »

نظر له (جلجاميش) مذهولاً .. الحقيقة أنه لايريد الخلود ، لكنه يهاب الموت .. والخلود هو سبيل الفرار من الموت ..

ـ « هل لديك حل أم أنك تتسلى ؟ »

قال الرجل (الذى أشعر بشكل ما أن عشتار أرسلته وإن لم تقل الملحمة هذا) :

- « هل سمعت عن (أوتنابشتيم Utnapishtim) ؟ »

حاول (جلجاميش أن ينطق الاسم الصعب ثانية فلم يستطيع ..

- « هل هذا اسم أم فعل أم دواء جديد للإسهال »

أردف الرجل :

- « هو الوحيد الذى ظل حيًا بعد الفيضان العظيم .. »

هذا الفيضان الموجود فى كل الملاحم القديمة ، والذى يعتقد كثيرون أنه ذات الفيضان الذى أغرق الأرض فى عهد (نوح) عليه السلام .. واضح تمامًا أن الفيضان حقيقى ثم نسج خيال البشر الملاحم حوله ..

- « وهل يعرف سر الخلود ؟ ربما يملك الخلود لكنه لا يعرف سره .. »

قال الرجل :

- « بل هو يعرف .. أنا على يقين من أنه يعرف .. »

هكذا نظر (جلجاميش) إلى الأفق ..

يبدو أن هناك أملاً ما ..

* * *

8- الرحـــلة ..

يعيش (أوتنابشتيم) حيث نهرا (دجلة) و(الفرات) ..

أعتقد أن هذه النقطة مناسبة لنفهم لماذا سميت البلاد باسم (مابين النهرين Mesopotamia) .. كما قلنا إنها المنطقة شديدة الخصوبة ما بين نهرى (دجلة Tigris) و(الفرات Euphrates)(*) . وهما يجريان متباعدين لمسافة لا بأس بها قبل أن يلتقيا ليصبا فى شط العرب .. لاحظ أننى لم أطلب منك البحث عن الأطلس لأننى يئست تمامًا منك فى هذه النقطة .. لسبب ما يعتقد الجميع أن الأطلس خلق لتشرب أوراقه الزيت الناجم عن قلبى البطاطس . إن المنطقة تفتقر إلى الأمطار لكن شبكات القنوات التى ترويها من النهرين تجعلها عالية الخصوبة . وكما نعرف فحيثما وجدت الحضارات القديمة . نضيف إلى هذا إنه حيثما وجدت الخصوبة وجد الغزو الخارجى . سوف نجد أن (الأكاديين) حكموا المنطة ثم جاء السومريون لتكون عاصمتهم (أور Ur) .. ثم جاء غزو (عيلام) من الشمال ..

(*) برغم أن النهرين وبلاد ما بين النهرين مصطلحات عربية فقد أدرجت الاسماء الغربية لها ، لأن معظم ما كتب عن الأسطورة مكتوب بالانجليزية ..

بعد هذا تظهر حضارة البابليين والأشوريين . الحضارة الأخير اشتهرت بالبطش واليد الحديدية . حكم الأشوريون الشرق الأوسط بأكمله فى فترة ما ، ولسوف تجد ذلك الخليط من النمط الأشورى والفرعونى فى بعض تماثيل المتحف المصرى حيث (أبو الهول) يحمل وجهًا أشوريًا لاشك فيه . وتنتهى هذه الحقبة الصاخبة بالغز الفارسى . ثم يأتى الغزو اليونانى فالرومانى ، وبعد هذا تصير البلاد عربية إلى أن يصل العثمانيون ..

المهم كما قلنا إن الأخ (أوتنابشتيم) كان يعيش عند النهرين .

لسبب ما تفترض الملحمة أن هذا الموضوع عسير جدًا .. وأن الأهوال تفصل بين (جلجاميش) وبينه ..

★ ★ ★

لم يعرف أنها هى إلا متأخر جدًا ..

السيارة الفاخرة تقترب منه لتسير بمحاذاته .. دقائق ثم يلاحظ أن الأمر غير معتاد ..

نظرة إلى زجاج السيارة الذى يهبط ببطء كاشفًا عن النظارة السوداء جعلته يعرف من هى ..

كان يحمل كيسًا بلاستيكيًا يحوى بعض الخضر مع أرغفة الخبز ، وكان عائدًا للدار ، وقد لاحظت ان ثيابه لم تعد بالنظافة التى عرفتها .. لم يكن متأنقًا قط ـ وهى لم تره إلا فى ثياب المحطة الزرقاء على كل حال ـ لكن ثيابه كانت شديدة النظافة ، أما لحيته التى ترفض أن تستطيل أكثر فكانت توحى بالإهمال لا أكثر ..

ـ « البقية فى حياتك .. »

نظر لها وهمس بشىء لم يتبينه هو نفسه ..

كلا .. هى لم تأت لتخبره الحقيقة .. ليست مجنونة إلى هذا الحد لكنها بحثت عنه لسببين : أولاً لأن المجرم يحوم حوله مكان الجريمة .. هذه قاعدة يعرفها اصغر مخبر فى الشرطة فكيف لاتعرفها هى ؟ ثانيًا : لأنها ما زالت معجبة به وقد أملت فى أن يمنحه الوهن النفسى درجة ما من الاستسلام ..

قالت له وهى تلاحق خطواته بسيارتها :

ـ « مررت على محطة البنزين فقالوا لى إنك تركت العمل .. »

قال وهو ينظر للأرض :

ـ « لن أسأل عن الطريقة العبقرية التى عرفت بها مكان بيتى .. »

- « آه .. ما أكثر أولاد الحلال ! »

وما أكثر ما تفعله عشرات الجنيهات تعطى لأصحابه فى محطة البنزين .. هكذا تجد بسهولة من يصحبها لداره ومن يخبرها بمواعيد خروجه وكل شىء ..

- « ألن تركب يا (جلال) ؟ »

قال بنفس الطريقة الساهمة :

- « ومنذ متى ركبت يا آنسة ؟ »

- « إذن توقف بالله عليك قبل أدهم طفلاً وأنا انظر إليك .. »

كانت طبعًا تمشى على يسار الطريق كى تتمكن من الكلام معه . ولما توقف لم تترجل وإنما قالت له من النافذة كدأبها :

- « اسمع .. أنت شاب والمستقبل أمامك .. لن تقضى العمر كله تبكى هذا الصديق .. ماذا كان اسمه ؟ »

هز رأسه وقال فى شىء من التهكم :

- « اسمه الفقيد .. لم تعد الأسماء تهم .. »

كل هذا الجفاء وهو لايرى علاقة لها بالموضوع ، فماذا لو عرف ؟

ـ « ماذا تنتوى ؟ ما هى خططك للمستقبل ؟ »

قال لها ساهمًا كأنه يكلم نفسه :

ـ « لا أعرف .. إن فكرة الموت تطاردنى .. أنا بحاجة إلى وقت أطول لأستوعبها وأتكيف مع حياتى .. »

كان يفكر ..يفكر فى الشيخ (أبو شاهين) ..

كل الناحية يعرفون الشيخ (أبو شاهين) .. هناك وراء مجموعة البيوت العشوائية هذه أرض بور تستخدم كمقلب للقمامة ، وتسكن فيها الكلاب الضالة ، ووراء الأرض البور توجد حديقة صغيرة من نباتات (التمر حنة) والياسمين .. وسط هذه الحديقة تجد بيتًا صغيرًا بائسًا من طابق واحد .. وقد تم بناؤه بحجارة بدائية اقرب للطين اللين ..

فى هذا البيت يعيش (أبو شاهين) .. لم يره (جلال) قط لكنه يسمع عنه .. البعض قال إنه نصاب وإنه ينتظر (كبسة الشرطة التالية ، والبعض قال إنه من كبار العارفين ..لا يعرف ..

لكنه فكر فى أن يذهب لهذا الرجل .. أخبر رفاقه وأهله أنه ذاهب ليقابل الشبح اليوم ..

سوف يسـأله كل الأسئلة التى تحيره ، ولو لم يجد عنـده إجابة فلسوف يتجه إلى أحد الأطباء النفسيين .. لا يعرف أحدهم ولا يحسب أنه قادر على دفع أتعابه ، لكنه سيحاول ..

فقط لو لم يرو الشيخ (أبو شاهين) عطشه إلى الحقيقة ..

★ ★ ★

و(جلجاميش) يقطع السـهوب والوديـان والتـلال قـاصدًا عنوان هذا الأخ (أتنابشتيم) ..

اجتاز بوابات يحرسها الغيلان ، وخاض جداول تحف بهـا التماسيح ، وقابلته عشرات من السباع .. لكن هذه الأشياء كانت من روتيـن حياتـه المعتـاد قبل أن يلقـى (إنكيدو) .. نوع المتاعب الممتعة التـى تجعل الحياة محتملـة .. إن الوحش الحقيقى المخيف فى هذا العالم هو أفكاره ..

لهذا كان يقضى أيامه فى خنق الأسود ، وتهشيم عظام السحرة ، وإطاره أعناق الغيلان بالبلطة .. وفى المساء كان ينـام راضيًا .. يبـدو أن هذه عادة (أشورية) قديمة ، لأن الأخ أشور (بانيبـال Ashurbanipal) شـخصيًا كتـب عـن نفسه فى الآثار يقول :

- « لقد سلخت بيدى جلود جلود كل من قبضت عليه من أسرى (عيلام) ، وتلك شيمة المحارب . ثم شربت كأسى بلذة ، وفى الليل نمت ملء جفنى فكانت أحلامى سعيدة مفرحة ! »

هكذا يريد ذلك الوغد أن يجمع بين متعة سلخ الأسرى ومتعة النوم الهادىء !

وتستمر الرحلة دون أحداث إلا ما سبق ذكره ..

★ ★ ★

يجتاز (جلال) الأرض البور التى تفصله عن الشيخ ..

يتعثر فى عشرات الحفر ومومياوات النباتات .. النباتات المائتة لها رهبة لا تختلف كثيرًا عن رهبة البشر الموتى .. تنبح عليه الكلاب ثم تتراجع حين تراه يمشى فى تصميم ..

★ ★ ★

وصل (جلجاميش) فى النهاية إلى حديقة ..

نعم حديقة فيما عدا أن ثمارها تلبس ولا تؤكل .. لا مزاح هنا .. إن الأشجار تحمل ثمارًا من الياقوت والمرجان واللؤلؤ والزبرجد ..

بالطبع لم يكن هذا نوع يناسب حالته النفسية .. تصور أنك فى الصحراء تموت من الظمأ فيلقى لك أحدهم بقطعة ذهب ..

مشى نافد الصبر وسط هذه الأشجار التى لا نهاية لها .. وكان مرهقًا من السفر الطويل ، لهذا سره أن يجد ينبوعًا .. ولحسن الحظ كان فى الينبوع ماء وليست فضة منصهرة ..

راح يجرع الماء بلا توقف بما يناسب بطلاً بابليًا مثله ، وتذكر طريقة (إنكيدو) فى الشرب على قوائمه الأربع .. تلك العادة التى لم يتخلص منها منذ أيام الوحشية .. فوجد نفسه يشرب بالطريقة ذاتها ..

طبعًا كانت (عشتار) تراقبه من وراء إحدى الأشجار ..

إن إعجابها به لم يفتر .. وإن لم تجرؤ على أن تدعوه حبًا ..

وقالت فى نفسها :

- « هو ذا الأحمق يبحث عن خلود .. ولا يعترف بأن الخلود محرم على البشر »

إن (جلجاميش) من أغرب أبطال الملاحم الذين سمعت عنهم بوصفها ما زالت (عبير) .. كل بطل ملحمة يفتش

عن شىء مادى ملموس ويواجه الموت ذاته من أجل الحصول عليه ، أما (جلجاميش) فيواجه الموت من أجل تفادى الموت .. هو أول بطل ملحمة يعذبه الخوف من الموت لكن هذا يعطيه طابعًا ميتافيزيقيا فريدًا .. وبينما يكافح الأخ (جيسون) من أجل الفروة الذهبية ، ويكافح الأخ (هيركيوليس) من اجل حريته ، وبكافح (برسيوس) من اجل إنقاذ حبيبته (أندروميدا) .. فإن هذه الأشياء تبدو طفولية جدًا بالنسبة للسؤال الأكثر نضجًا بصدد وخلود والموت ..

أقسمت أن تفسد له خطته ما استطاعت ، لكن بعد أن يقبل بحبها أولاً .. فى هذه اللحظة بالذات سيموت .. هذا هو الانتقام الأمثل لكرامتها التى لم يشبعها موت (إنكيدو) ..

لابد أنها رفعت رأسها للسماء وضحكت ضحكة شيطانية من التى يضحكونها فى الملاحم ..

* * *

9- الرحلة مرة أخرى ..

إنه البحر المتلاطم ..

أى بحر ؟ بصراحة لست متأكدًا .. غالبًا هو الخليج العربى ..

وعلى الشاطىء هناك كوخ كبير .. وهناك براميل .. هناك أكوام من البلح تعلو كالجبال .. وهناك براميل .. ومعصرة بابلية عتيقة .. وهناك براميل ..

أدرك (جلجاميش) إن هذا المكان معمل لتقطير الخمور على الأرجح ..

تقول الملحمة إن هذا المكان كان يخص (سيدورى Seduri) المسئولية عن تقطير خمور الآلهة .. لا غرابة فى هذا ما دام آلهة الأساطير لهم ذات عيوب البشر ..

كانت هناك فتاة .. لم تكن فى جمال (عشتار) طبعًا ولا إغراء (شامحات) .. ويبدو أن انهماكها فى العمل طيلة اليوم أفقدها البرق الأنثوى ..

لكنها ظلت تتمتع بحدة البصر .. فما إن رأته قادمًا حتى

أطلقت صرخة هلع .. رأت هذا العملاق المخيف خارجًا من الدغل وهو ملطخ بمزيج فريد من الغبار والعرق والدم .. وفى عينيه بريق مخيف يجمع التصميم والتوحش والشك ..

ـ « عفريت !! »

وهرعت ركضًا إلى الكوخ وأغلقت الباب خلفها ..

دنا الرجل من الباب بغلظة :

ـ « افتحى الباب يا مدام ! »

ـ « لن افتح .. »

الآن يدق بغلظة اكثر :

ـ « أنا استطيع تحطيمه فى ثوان ، لكنى أكره ان استخدام العنف مع من لم يؤذنى .. أرجو أن تفتحى لأن لدى عددًا من الأسئلة .. »

ـ « لن أرد على شىء .. »

هكذا مد يده إلى الرتاج وانتزع القفل ، ثم مد يده ليزيح الباب عن طريقه .. هكذا وجدت نفسها تقف أمام ذلك الوحش الواقف وسط شظايا الخشب ..

قال لها وهو يبتعد :

- « الآن ارجو أن تنسى هذه الهستيريا وتخرجى .. ترين أننى لن أؤذيك »

هكذا خرجت من مكمنها عارفة إنه بالفعل يستطيع تهشيم عنقها .. ما دام يفعل فلا يوجد سبب يدفعه إلى ذلك ..

جلس يلهث وطلب منها بعض الماء .. لغسيل وجهه طبعًا ، ثم طلب منها بعض الشراب فأحضرت له جرتين افرغهما فى جوفة بسرعة البرق ..

قالت له وهى تقف على مسافة مأمونة :

- « من أنت ؟ ولماذا جئت هنا ؟ »

بدأ يحكى لها قصته .. قصته منذ كان حاكمًا ظالمًا حتى صار فيلسوفًا يبحث عن الخلود .. حكى لها عن صاحبه (إنكيدو) وعن (عشتار) وعن .. باختصار حكى لها هذا الكتيب من بدايته حتى الفقرة السابقة ..

ثم قال لها :

- « الجواب عند (أوتنابشتيم) .. هذا هو ما قالوه لى .. »

فكرت فى الاسم مرارًا وهى تعيد ملء إحدى الجرار له .. ثم قالت :

« آه ! الرجل الذى نجا من الفيضان .. إعرفه .. »

ثم قالت وهى تناوله الجرة :

« لا بد من عبور نهر الموت .. لا أحد يستطيع هذا .. ويؤسفنى إن هذه نهاية رحلتك .. سوف تعود من هنا »

« هل تتحدثين عن نهر (ستيكس Styx) ؟ بيدو أنك أصبت بالحول يا أختاه فلسنا فى الأساطير الإغريقية هنا .. »

هزت إصبعها مؤكدة على كلامها :

« هناك واحد هنا أيضًا .. أكثر ثقافات العالم عندها (نهر الموت) فى لاشعورها الجمعى .. النهر الذى يعبره الأحياء ليصيروا فى عالم الموت .. غير أن الإغريق سيكونون سعداء الحظ لأن عندهم معداوى هو (شارون Charon) ، أما هنا فلا توجد طريقة للعبور »

★ ★ ★

ان الحياة التى تبحث عنها ، لن تجدها أبدًا ..

لقد قرر الإله أن نهاية الانسان هى الموت ..

لا أحد يستطيع أن ينجو منها ..

★ ★ ★

من النص الأصلى للملحمة (جلجاميش)

★ ★ ★

- « هل تريدين القول إنه لاجدوى ؟ لاسبيل إلى عدم الموت ؟ »

فى صدق قالت :

- « لاتوجد طريقة .. لقد منحت بضعة أعوام تستمتع فيها ثم تموت ، وأنت تنوى تضييعها فى البحث عن الخلود .. سوف تموت لأن الطير يموت .. يسقط على الأرض فيلتهمه القط ، والقط أيضًا يموت .. تأكل الديدان جثة القط لكن الديدان تموت .. النبات يتغذى على الجميع لكنه فى النهاية يموت .. »

قال فى غل وهو يطوح بالجرة التى فى يده :

- « ثمة رجل واحد نال الخلود .. رجل واحد .. معنى هذا أن الأمر ليس مستحيلاً .. »

- « (أوتنابتشيم) هو الاستثناء الذى يؤكد القاعدة .. »

فجأة لمستها يد (عشتار) الخفية لتذكرها بشىء فهتفت :

- « لحظة .. ثمة طريقة لعبور النهر .. »

هتف (جلجاميش) فى مرح :

- « هلمى يا أختاه ! ماهى ؟ »

ـ « هنـاك بحـار يدعى (أورشاتابى Urshanabi) .. إنه يعبر نهر الموت بانتظام .. »

فكر فى الاسم قليلاً وحاول أن يكرره :

ـ « حاول تجزئة الاسم ليسـهل نطقـه وحفظـه .. (أور) هى المدينة المعروفة .. ثم (شنبى) أى (شاربى) بالعامية .. »

ـ « ليكن .. (أورشاربى) .. »

ـ « (أورشاتابى) .. »

هذه هى مشكلة الحفظ بالربط .. أحيانًـا لا تتذكر المعلومـة لأنها تختلط بالطريقـة التى ربطتها بها .. أذكر طـالب طب من زملائى حاول حفظ الاسم اللاتينى (لينيا ألبـا Linea alba) بربطـه بعبـارة (الدنيا قابلـة) .. وهكذا لـم يستطيع نطـق الاسم اللاتينى للابد إلا هكذا : (دنيا ألبا) ..

ماهذا ؟ مـا الـذى جعلنـا نتفرع إلـى هذا الموضـوع ؟ إن الاستطراد عـادة لـن أتخلص منهـا أبدًا ، وهومـن أعراض تصلب شرايين المخ المعروفة .. نعود لـ (جلجاميش) الـذى قال متلهفًا :

ـ « هذا الرجل .. أين أجده ؟ »

أشارت إلى واد مظلم مكفهر يمتد أمامهما فى الأفق ، وقالت له إنه عبر هذا الوادى يجد الملاح ، ثم أضافت فى حذر وقد قدرت أن (عشتار) ليست هنا :

- « لاجدوى من محاولاتك .. تذكر هذا . »

لم يضف كلمة لخرى .. لقد استرد قواه وبوسعه ان يواصل الرحلة ..

* * *

كانت أفواج الموتى تقطع الوادى ، وقد بدا على كل منهم الهم والغم .. من يفكر فى أطفاله الذين تركهم بلامعين فى الحياة ، ومن يفكر فى أبويه المسنين ، ومن يبكى لأنه ببساطة لا يتخيل أن يذهب إلى حيث لا توجد خمر نساء ولا لهو .. الكل يمشى صامتًا أو باكيًا فى مسيرة طويلة ..

ودنتمنه فتاة حسناء ألقت بنفسها عند قدميه وصرخت :

* * *

- « (جلجاميش) أيها الملك العظيم .. أتوسل إليك أن تنقذنى وتعيدنى لعالم الأحياء .. لا أريد أن أترك حبيبى وصديقاتى .. »

تبدو مشاكل الآخرين سخيفة جدًا إذا ما كنا نواجه مثلها

أكثر .. وهو ذات ما يشعربه ذات ما يشعر به الطبيب المحموم حينما يأتيه مريض يشكو له بعض أعراض البرد .. لهذا لم يعلق وتركها حيث هى .. إنها تعتقد أن بوسعه عمل شىء لمجرد أن جسمه يشبه أبطال كمال الأجسام ..

المركب يقف جوار الشاطىء ، وهو مركب جدير فعلاً بعبور بحر الموتى ..

كان ذلك الملاح الذى نسيت اسمه يقف هناك ، وهو يتسلى بربط مجموعة من فقرات العظام البشرية بسلك .. طبعًا .. فبم يتسلى ملاح كهذا ؟

بالفعل يبدو الجو تمامًا كأنه نهر (ستيكس) وكأن هذا هو (شارون) ملامح الجحيم .. ولن اندهش كثيرًا لو كانت مملكة (هيدز) موجودة على الجانب الآخر ..كما قلت لك لا أرى أن علم الديان المقارنة القديمة صعب إلى هذا الحد ..

أما عن الملامح (أورشانابى) ذاته فكان عجوزًا له وجه اقرب إلى الجماجم ، وإن كانت له عينان ثاقبتان من الطراز الذى يخترق روحك ذاتها ..

- « مساء الخير .. هل أنت (أورشاربى) ؟ »

- « مساء النور .. لم كنت تتكلم عن (أورشانابى) فأنا هو .. لنكن مختصرين .. أنت تريد العبور وأنا أريد أجرًا .. والأجر هو أن اعرف قصتك .. »

هكذا ناوله (جلجاميش) لوحًا من الصلصال المحروق وقال :

- « اعتدت أن احكى القصة لكل من أقابله حتى صار الأمر مملاً ، لهذا قمت بطباعتها على هذه الألواح لأريح بالى .. »

ألقى الملاح بالعظام التى كان يتسلى بها ، وراح يطالع اللوح فى اهتمام ..

- « مم .. نم نم .. (عشتار) .. نم نم .. (سيدورى) .. مم .. صديقك .. إم م م .. ليكن .. إن (أتنابشتيم) فى الناحية الأخرى فعلاً .. فلنذهب »

وجلس (جلجاميش) فى القارب بينما ركل الملامح الشط بقدمه ، وحرر المجداف ..

وبدأ القارب يبتعد فى مسيرته الرهيبة ..

★ ★ ★

10ـ أوتنابشتيم ..

دق (جلال) الباب عدة مرات فلم يرد أحد ..

أزاحه برفق وحذر ، لا يعرف ما يجب أن يتوقعه ..

لكنه وجد الكوخ خاليًا تقريبًا .. كان هناك مصباح من الطراز الذى نطلق عليه (كلوب) ، وكانت هناك حشية على الأرض . حشية رخيصة فى الواقع ، وثمة جريدة ممزقة عليها طبق معدنى صغير به قطع من الباذنجان الأسود المخلل وبقايا رغيف من الخبز الأسمر ..

لم يفهم أن هناك من يجلس فى الركن المظلم إلا بعد دقيقة وأصابه هذا بالرعب ..

أخيرًا استطاع أن يدرك الحدود الخارجية لهذا الشيخ الجالس هناك .. اللحية البيضاء السابغة التى تذكرك بالتاريخ كما يرسمونه فى القصص المصورة .. الجلباب الممزق الرث ..

ـ « نعم .. هذا هو طعامى .. »

كذا قال الشيخ بصوت واهن مراهق ، وأضاف :

ـ « هذا هو أقل القليل الذى يبقينى حيًا .. ولو استطاعت لقللته أكثر لكن هذا مستحيل .. »

سمع (جلال) صوت زئير خفيض .. ذلك الزئير المنذور بالويل الذى تصدره الكلاب عندما تنوى الهجوم ..

عندما ترجع آذانها للخلف وتتصلب ذيولها ..

نظر للوراء فى هلع ولم يعرف ما يفعل بينما الكلب الأسود شرس المنظر يقف على باب الكوخ وينظر له بعينين تتقدان فى الظلام ..

قال الشيخ :

- « لا تخف هذا كلب أعرج بائس عجوز لكنه يتسول بعض الهيبة بعد ما نبذه البشر .. تعال أيها التعس .. »

وفى يده كانت لقيمة صغيرة ألقاها للكلب فنسى هذا كل شىء عن التمثيلية التى كان يؤديها ، وراح يلتهمها فى جشع .. ودبت الحياة فى ذيله ..

قال الشيخ :

- « المشكلة أننى لا أجد ما يكفى لإطعام هذه الأكباد الرطبة .. كم من مرة تخليت فيها عن وجبتى من أجلها .. لكن هذا لا يكفى .. هذه المخلوقات البائسة لم تخلق لتتحمل كل هذا العذاب .. »

* * *

على الضفة الأخرى يقف (أوتنابشتيم) ..

فعلاً ينطبق عليه كل شىء قيل عنه أو تخيلته أنت ..

الذقن البيضاء الكثة التى توشك على أن تلمس الأرض .. الحاجبان الكثان الشائبان ، تطل من تحتهما عينان ثاقبتان .. والتجاعيد فى كل بوصة من وجهه كجريد مضغها كلب عجوز ثم بصقها .. والجلباب الطويل البابلى والصندل ..

كان بانتظار (أورشانابى) ليثرثر معه كما اعتادا .. لكنه اليوم يراه قد أحضر زائرًا وأى زائر ! إنه عملاق ضخم يوشك على إغراق القارب ذاته .. وعضلاته توشك على الانفجار ..

فى النهاية بلغ القارب الشط فترجل (جلجاميش) وحيا العجوز ..

سأله العجوز وهو يرمقه بعينيه الثاقبتين :

« مرحبًا بك .. لكن من أنت ؟ ولماذا جئت هنا ؟ »

أخرج (جلجاميش) من ثيابه لوحًا آخر من الصلصال وناوله العجوز وقال :

« معذرة .. لقد حكيت هذه القصة عدة مرات حتى قررت فى النهاية أن أحمل معى هذه الألواح .. إنها تشبه البطاقات الشخصية التى سيستعملونها فيما بعد »

« لكنى للأسف لا أحسن قراءة الكتابة المسمارية .. »

هكذا وجد (جلجاميش) نفسه مضطرًا إلى قص القصة .. أخيرًا حك رأسه وقال وهو يصطحب (جلجاميش) :

« تعال لكوخى كى نتكلم .. »

هنا تساءل (أورشانابى) وهو يعد القارب للعودة :

« هل يوجد شىء مطلوب منى ؟ هل تريد أن اجلب لك شيئًا من عالم البشر ؟ »

« شكرًا يا (أوشو) .. لاشىء .. فقط لو وجدت بعض الجرائد المسمارية فلاتنس أن تجلبها المرة القادمة .. إن زوجتى تجيد القراءة »

« لم تعد الجرائد تقول شيئًا ذا بال .. دعك من تكلفة الصلصال المحروق .. »

« لقد صار الغلاء فاحشًا .. لكنها تسلينى على الأقل .. »

نحن الآن فى كوخ (أوتنابشتيم) ..

مـا لم يعرفـه (جلجـاميش) هـو ان زوجتـه خـالدة مثلـه وتعيش معه .. وكان الكوخ مريحًا لكنه غير فـاخر .. كـانت الزوجة مسنة مثل زوجها ، وكانت تتحرك فى وهن .. أدرك (جلجاميش) إنهما وقعا فى ذات الخطأ الذى يقع فيه أبطـال القصص طلبوا الخلود .. إنهم يطـالبو الخلود .. إنهـم يطلبـون ألا يموتـوا وينسـون أن يطلبـوا ألا يمرضـوا أو يشـيخـوا .. وفـى قصة (جليفر Gulliver) قابل البطل الخالدين الذين يحملون شامات على جبينهم ، فوجدهم أقرب إلى المومياوات الحية . وقد رأى كل منهم كل أنواع الأمراض ، ورأى موت كل أب يحترمـه ، وكل صديق يرتـاح إليـه ، وكل قط يأتنس بـه .. باختصـار كانت حياتهم ضنكًا حتى لتدرك أن الموت هدية حقيقية ..

قدم له (أوتنابشتيم) وجبة خفيفة أعدتها المدام ثم جلس على الأرض وقال :

« أنت إذن راغب فى الخلود .. هل لى أن أعرف السبب ؟»

قال (جلجاميش) بفم ملىء بالطعام :

« لنصحح الأمر .. أنا لا أرغب الخلود .. أنـا خـائف من المـوت .. لا أطيق فكـرة أن يتعفـن جسـدى وتـأكلـه الديـدان بينما أعبر أنا عالمًا لم يعد منـه احد .. هـذه الفكرة مفزعـة وقد جعلتها وفاة جعلتها وفاة (إنكيدو) كابوسًا .. »

قال (أوتنابشتيم) :

« ليس الخلود متعـة كما تتصور .. إن له مرادفًا خطيرًا هو الملل .. »

فى غيظ قال (جلجاميش) :

« يسهل عليك قول هذا وأنت الليل عارفًا يقينًا أنك ستصحو .ز مثلما يقول الثرياء : المال لا يجلب السعادة ، وهم يزنون القنطار الخامس من ذهبهم .. »

قال (أوتنابشتيم) آسفًا :

« لا وجود للخلود بالنسبة للبشر .. يجب أن تعى هذه الحقيقة .. الطريقة الوحيدة للخلود بالنسبة للبشر هى أن تنجب أطفالاً يحملون صفاتك واسمك .. »

« وماذا يعنينى فى أن يمشى عل الأرض من يحملون اسم (جلجاميش) بينما (جلجاميش) نفسه هيكل ينخر فيه الدود ؟ »

نهض (أوتنابشتيم) مغادرًا الكوخ ، قائلاً :

« بعد إذنك .. »

وفى الخارج كانت الزوجة واقفة تعلق بعض العباءات البابلية على الحبل ..إن الغسيل البابلى يجف بسرعة خاصة فى مملكة الموتى ..

قال لها همسًا :

« هل ترين أن أخبره ؟ »

هزت رأسها لا تعرف ما تقول ، ثم قالت فى حذر :

« جربه أولاً .. إن العالم ملىء بالـ .. »

★ ★ ★

« .. قسوة .. العالم ملىء بالقسوة .. لهذا فررت إلى هنا .. بعيدًا عن كل شىء وحيث لا رفيق لى إلا الكلاب الضالة والقطط وربما الثعابين ولو كنت سعيد الحظ .. الثعابين تحتاج إلى الحب والرفق لأن الناس يلعنونها لا لشىء إلا لأن شكلها غريب .. »

قالها الشيخ وتمدد على الحشية الأرضية وراح يكمل طعامه ..

قال له (جلال) وهو يترع على الأرض مثله :

« الخوف من الموت يحاصرنى .. »

« لكنك ستموت .. »

« أريد ان أبتلع هذه الحقيقة .. »

« لكنك ستبتلعها عندما تجربها .. »

« ذكرى (مجدى) لا تفارقنى .. »

« سوف تلحق به .. »

ثم قال الشيخ وهو يلوك الباذنجان الأسود فى استمتاع :

« إن الله اختار لك هذا المصير وكذلك اختار لك أن تنساه وتنعم بحياتك .. أما أن نقضى حياتنا نفكر فى الموت فهو حمق .. ربما نتأهب له لكننا لا ندعه يبقينا مشلولين عاجزين عن الحركة .. هل كنت فى المدرسة ؟ »

نظر (جلال) إلى ثيابه الرثة ولحيته النامية وأدرك أن السؤال منطقى وليس وقاحة .. قال :

« نعم .. »

« كانت هناك الفسحة .. تلهو فيها وتستريح وتلتهم وجبتك .. هب انك رفضت أن تلهو فى الفسحة ورحت تبكى .. لماذا ؟ لأنها ستنتهى ! تبكى وتبكى حتى تنتهى فعلاً .. هل هذا حمق أم فكر فلسفى ؟ »

« حمق .. »

« أنت تفهم ما أريد قوله .. »

« لا حيلة لى فى هذا .. »

قال الشيخ فى صبر :

« يجب أن تعى أنه لا خلود لنا على الأرض .. الخلود هو فى الدار الآخرة .. فكر فى الأمر كفسحة قصيرة بعدها تعود إلى مكانك الدائم فى الصف .. عندئذ تواجه السؤال : هل آذيت سواك ؟ هل أديت ما عليك ؟ هل تركت شيئًا .. شيئًا واحدًا أفاد من يأتون بعدك ؟ هل . وهل .. لا يمن أن تجيب عن هذه الأسئلة إذا أمضيت حياتك فى البكاء .. »

ثم أشار إلى (جلال) وقال :

« هناك طريقة واحدة للخلود على هذه الأرض هى أن تتزوج وتنجب وتربى أطفالك جيدًا .. فهل تفعل ذلك ؟ »

« لا يمكننى الزواج .. أنا مفلس »

« كنت تكافح وتبنى ذاتك .. تدرس وتعمل ، ثم قررت أن ينتهى كل هذا لأن صاحبك مات .. كنت فى طريقك إلى الاكتمال .. كنت تنمو ثم قررت أن توقف هذا النماء .. »

تذكر (جلال) أنه لم يخبر الرجل قط عن عمله بجانب الدراسة .. لكنه من البداية قدر أنه لن يندهش لأى شىء يقوله هذا الشيخ ..

قال (جلال) وهو يداعب عنق الكلب الذى أقعى إلى جانبه ، والذى لم يعد يهابه الآن :

« لاتؤاخذنى . ربما ابدوا لك طفلاً .. لكن .. »

« أنت لاتبدو .. أنت طفل ! »

« ليكن .. لكنى ما زلت أصبو إلى حل مادى ملموس بدلاً من الكلمات الحكيمة .. »

كأنه يتمنى أن يضغط الرجل على زر (منع الخوف من الموت) فينتهى الأمر ..

نهض الشيخ فى تثاقل واتجه إلى ركن الغرفة .. كانت هناك جرة مهشمة سدها بقطعة ورق مكرمشة كأنها سدادة .. مد يده وأزاح السدادة ثم عبث بالداخل حتى لفافة صغيرة من الورق لها طابع الأحجبة المخيب للأمل .. وقد اعلن (جلال) عن هذا فى حسرة :

« حجاب لإطالة العمر ! وطبعًا على أن ادفع ثمنه ! »

قال الشيخ باسمًا فى الضوء الخافت الذى يغلق المكان :

« لا .. المشكلة أنك تعتبرنى نصابًا ولا اعرف لماذا يجب

أن ابرهن لك عن أى شىء .. لكن هذه الورقـة تحـوى سر عدم الخوف من الموت .. لنتفق على شىء .. أولاً أنت لن تفتحها أبدًا . ثانيًا لن يراها أحد سواك .. »

قال (جلال) فى عدم اقتناع :

« ثق بى فى هذا .. »

★ ★ ★

11ـ الاختبار..

قال له (أوتنابشتيم) :

ـ « سبعة أيام كاملة لاتنام فيها .. هذا هو الشرط .. »

نظر (جلجاميش) إلى الكوخ حوله .. كان هذا آخر مطلب يتوقعه .. لذا كرر السؤال :

ـ « سبعة أيام من السهر .. وهل هذا يفيدك فى شىء ؟ »

ـ « لابد لى من أن أعرف قدرتك على السهر .. إذا كان النوم موتًا أصغر فأهم شروط الخلود هى ألاتنام .. فكر فى الحياة الأبدية كسهر لاآخر له .. »

ثم أخرج بعض الأعشاب ممن لفافة يحتفظ بها وقال :

ـ « ربما تساعدك هذه الأعشاب السحرية .. لاحظ أننى قلت (ربما) .. »

قال (جلجاميش) فى ضيق :

ـ « لا أخفى عليك أننى أحب النوم حبًا جمًا .. لكن الأمر يستحق .. »

وهكذا جلس ساهمًا ..

المشكلة هى أنه كان مرهقًا جدًا ، وكانت كل عضلة فى جسده تطالب بحقها فى أن تستريح .. تلك الراحة المقدسة التى تتخلى فيها عن كل شىء حتى مقاومة الجاذبية الأرضية .. ملقى كالشىء على الأرض .. غير مسئول حتى عن نفسك .. لا تمارس أى شىء بإرادتك .. فلو خيروك لتوقفت عن التنفس والهضم والحلم ..

كانت عيناه حمراوين وشعر بجفنيه أثقل من حوافز الثور الأسود الذى كانت (عشتار) تركبه .. لكنه قاوم ..

جلس (أوتنابشتيم) جواره وبدأ يتكلم .. يتكلم بصوت رتيب ممل عن قصته مع الطوفان وكيف نجا منه .. صوت ممل يغرى بالنوم .. لكنه قاوم ..

بعد ساعات خرج من الكوخ ومارس الجرى عدة مرات .. ثم عاد إلى الداخل فراحت كل عضلة تطالب بحقها من جديد .. لكنه قاوم ..

جاءت العجوز وراحت تغنى أغانى أكادية عتيقة .. صوتها رتيب يغرى بالنوم .. لكنه قاوم ..

جفناه يزدادان ثقلاً .. لكنه لن ينام .. لن ينام .. لن ينام .. لن ينام .. لن ينام .. لن ينام .. لن ينام .. لن ينام .. لن ينام .. لن ....

★ ★ ★

كما قلت من قليل : مشكلة (جلجاميش) المزمنة هى أنه ينام حين لا ينبغى له النوم ، والأغرب هنا أنه نام سبعة الأيام كاملة !! لم ينم سبعة أيام متواصلة طيلة حياته لكنه الآن نامها ، مما يجعلنى أرتاب فى هذه الأعشاب التى أعطاه إياها (أوتنابشتيم) وإن كانت الملحمة لم تعلق على هذا .. ربما هو الدافع الخفى الذى يطلقون عليه **Rebound** أو تفاعل الارتداد .. حياتك كلها تعتمد على السهر .. إذن هذه هى الطريقة المثلى لعلاج الأرق ! وأى طالب ثانوية عامة يدرك دقة كلامى ..

كان ينهض فقط لالتهام بعض الخبز الذى تضعه المرأة جواره أو شرب جرعة ماء .. ثم .. خ خ خ خ !

وقال (أوتنابشتيم) لامرأته فى غيظ :

- « تأملى ! هذا هو البطل الذى يشتهى الخلود ! إنه عاجز عن البقاء ساهرًا سبعة أيام بينما يطالب بسهر الأبدية .. »

قالت وهى تضع رغيفًا آخر جوار (جلجاميش) :

- « لقد أنهك المسكين .. لا تنس كم من المسافات قطع .. »

أخيرًا نال (جلجاميش) كفايته من النوم (حان الوقت لهذا) .. فنهض يسأل عن طعام الإفطار ..

قال له (أوتنابشتيم) فى امتعاض :

ـ « يمكنك أولاً أن تستحم وتبدل ثيابك .. إن رائحة النوم تفوح منك كقبر .. »

وهكذا استعاد البطل رونقه .. لا لم يحلق ذقنه لأنك تعرف تلك اللحى الأشورية المجدولة العملاقة .. ثم جلس يلتهم الإفطار ويسأل (أوتنابشتيم) عن الخلود !

قال العجوز وهو يغمس اللقمة فى بعض العسل :

ـ « أنت فشلت فشلاً ذريعًا فى الاختيار .. لكن يشق على أن أتركك ترحل خالى الوفاض .. سأخبرك بالسر الذى آليت ألا أخبره لبشرى .. »

كف (جلجاميش) عن المضغ ليسمع بينما قال الشيخ :

ـ « هل تعرف (الإبسو) ؟ »

ـ « لا .. »

ـ « هى بقعة فى أعماق البحر .. هناك نوع معين من الأعشاب الشائكة .. سوف تغطس وتقطفها ثم تعود لدارك فتأكلها هناك .. هكذا تنال الخلود وكلما دب لك الهرم استعدت قدراتك .. »

ثم وقف على باب الكوخ وأشار إلى النهر وقال :

- « إن الملاح (أورشانابى) عائد الآن .. قل له أن يأخذك إلى البحر .. إلى (الإبسو) .. »

بعد قليل يصل القارب .. يترجل الملاح ..

يقول للعجوز وهو يحمل كومة من ألواح الصلصال :

- « ها هى ذى كل الجرائد الأشورية والبابلية والسومرية التى وجدتها .. خذ الحذر لأنها ما زالت طرية .. »

ثم يشير إلى (جلجاميش) :

- « هيا بنا .. »

ودع (جلجاميش) العجوز واحتضنه لكن الأخير قال فى نفاد صبر :

- « اذهب الآن ولاتشكرنى إلاحينما تقدر على الخلود .. »

أخرج (جلجاميش) واحدة من بطاقاته الشخصية العملاقة وناولها إلى الرجل ، وقال فى حرارة :

- « أية خدمة من (أوروك) ! لو أردت أى شىء من هناك فأنا الملك ! »

ـ « أعرف .. أعرف .. كن حذرًا .. »

ومن جديد ينطلق القارب ببطء فوق نهر الموتى ....

قال (أوتنابشتيم) وهو يرقب ابتعاد القارب :

ـ « هذا مجنون آخر قد رحل .. متى ينتهى هؤلاء ؟ »

★ ★ ★

قال له الملاح وهو يواصل التجديف :

ـ « هل ترى هذه البقعة ؟ يمكنك الغطس هناك .. »

كان البحر يمتد على مرمى البصر لاترى لـه أولاً ولا آخر .. والأمواج ترتطم بجانبى القـارب لكن الأخ (أورشـانبى) لا يهتز ولا يفقد اتزانه ..

شهق (جلجاميش) وقرر أن يغطس .. يبدو أن الطريق إلى الخلود معناه الهلاك المحقق .. لكنــه كـان مصـرًا علـى ما أراد ..

هكذا وثب إلى البحر ، وسرعان ما شعر بأن المياه صـارت هادئة .. ثمة ضوء أخضر جميل يزداد زرقـة كلمـا هبطت إلى أسفل .. وفى النهـاية رأى ذلك المشهد الذى لا أستطيع

وصفه .. تلك الحديقة الغناء تحت الماء .. أعشاب من نوع غريب فريد امتلأت بالأشواك .. هذه هى حتمًا .. لايمكن الخلود ذا شكل آخر لو كان له وجود ..

هكذا مد يده واقتلع بعضها .. وبدأ يرتفع .. عندما أدرك أن خيطًا أسود يخرج من بين أنامله .. هذا دم .. دم تغير لونه بفعل تلك القوانين الفيزيائية التى تحكم الرؤية فى الأعماق .. لقد جرحت الأشواك كفه كما هو متوقع ..

ومن بعيد رأى القاتل الصامت رائع الجمال يسبح نحوه ..

ذلك القاتل الذى يشم قطرة واحدة من الدم فى الماء .. القاتل ذو العينين الباردتين اللتين لاترحمان يدنو منه مسرعًا ..

لكن (جلجاميش) لم يكن رائق البال لهذا المزاح .. لهذا دس الأعشاب فى منزره ، ثم أمسك بذيل السمكة حين مرت بجواره ، وأمسك بزعنفتها العليا ثم اعتصر اليدين معًا ليحيلها إلى عجين قبل أن تفهم ما حدث لها ..

إن أسماك القرش الجائعة هى آخر شىء يحتاج إليه الآن ..

ومن جديد عاد يطفو نحو السطح ..

فوق مستوى الماء المتراقص راح يسعل ويبصق ، ثم تعلق بالقارب .. إن الماء المالح يؤذى العينين حقًا ..

ـ « هل وجدت العشب ؟ »

أخرجه من حزامه ولوح به منتصرًا !

قال الملاح وهو يتناول المجداف :

ـ « حافظ عليها .. إنك إن عدت لن تجد الباقى منها ، لأن هذه الأعشاب تزول إذا اقتطف بعضها ! »

ـ « ومعنى هذا ؟ »

ـ « معناه أن ما فى يدك هى آخر فرصة لبشرى للخلود .. »

توتر (جلجاميش) فدس الأعشاب من جديد فى زناره ، ومتجاهلاً الأشواك التى راحت تمزق بطنه ..

وقال للملاح :

ـ « فلتعد .. ممنوع أن ألتهم هذه الأعشاب إلا فى (أوروك) .. »

ـ « أعرف هذا .. »

وراح القارب يتهادى فوق صفحة المياه ...

* * *

12 ـ لقد أضعته !

الطريق إلى (أوروك) ..

ليس أجمل من العودة مظفرًا إلى الوطن حاملاً ما جبت الآفاق من أجله ..

لن يموت (جلجاميش) .. سوف يعيش للأبد وسوف يكون أعظم ملك عرفته الأرض ..

لكنه ينسى تفصيلاً مهمًا : (عبير) أو (عشتار) ما زالت هنا وهى تحمل له الضغينة كأسوأ من ذى قبل .. فى الحقيقة هى لا تعرف ـ ولا نحن نعرف ـ هل هذه الأعشاب ذات نفع أم لا .. إن منطق القصة غريب .. فلماذا يقبل (أوتنابشتيم) إعطاء سر الخلود لـ (جلجاميش) وهو قد فشل فى الاختبار الوحيد الذى عقده له ؟

هل هى خدعة من الشيخ كى يتخلص من هذا اللحوح ؟

على كل حال كانت (عشتار) تعرف شيئًا واحدًا : لن تتركه يعود إلى (أوروك) بهذه الأعشاب ..

* * *

بالنسبة لـ (جلال) كان على يقين من العكس تمامًا : هذه اللفافة مجرد حيلة من الشيخ (أبو شاهين) كى يتخلص بها منه ..

راح يعبر الأرض البور التى تفصله عم حزام البيوت الذى يعيش فيه ، وهو يتعثر فى الحفر والصخور والأوحال .. الكلاب تفر لدى اقترابه ...

ثم توقف فجأة .. نظر إلى الوراء حيث صار بيت الشيخ غير مرئى ..

لن أكون بهذا السخف .. بعد كل هذه الأعوام من الدراسة لن أحمل حجابًا صنعه شيخ نصاب .. صحيح أن الرجل لم يطلب مالاً لكن ليس النصابون كل سكان الأرض .. هناك المخابيل أيضًا ..

هكذا مد يده وعالج تلك اللفافات الكثيرة التى تحيط بالورقة .. كانت عسيرة الفك .. وخطر له أكثر من مرة أن يتوقف .. لكنه كان يدرك أنها تلك الطاقة المعنوية التى تكتسبها الأشياء ذات الرمز ..

يفك اللفافات .. يفك ..

فى النهاية وجد ورقة .. على الأرجح سيجد بها تلك الحروف

(العفاريتى) الغريبة ، والكتابة التى سيقال إنها سرياتية .. لكن الورقة كانت بيضاء .. بيضاء تمامًا ....

نظر للوراء وضحك ..

أنت لم تخدعنى يا شيخ (أبو شاهين) .. فقط اعتقدت أنك خدعتنى ..

★ ★ ★

وكان (جلجاميش) الآن يعانى حاجة ملحة إلى الاستحمام ..

إن رائحته صارت كوحوش الغاب .. بل كرائحة (إنكيدو) ذاته قبل أن يتعلم المدنية ..

كان النهر قريبًا .. ماؤه يتلألأ فى الشمس ويبتسم بسمة إغراء ..

هكذا نظر حوله ثم خلع ثيابه كلها وكومها على الضفة ، ووثب إلى النهر يعانقه ويعانقه النهر ..

ما أغرب تصرفات أبطال الملاحم هذه ! فى أسطورة إغريقية شهيرة ينجح الموسيقار (أورفيوس Orpheus) فى أن يدخل مملكة الموتى ليستعيد زوجته ، ويقبل (بلوتو) هذا لكنه ينصحه بألا ينظر للوراء ليراها وإلا فقدها للأبد .. هذا مطلب

عادل سهل .. لكن لابد من ذلك الحافز الذى يجعله ـ وقد صار على عتبة دنيا الأحياء ـ ينظر للوراء ليطمئن عليها ، فكانت نهايتها !

وتشد أنت شعرك ! وتوشك وأنت تقرأ القصة أن تصبح : ألا تستطيع الانتظار قليلاً يا أحمق ؟!

الحقيقة أن لهذا معنى عميقًا ، وهو أن البشر قاصرو التفكير .. وأنهم عاجزون عن تغيير مصائرهم إلا فى حدود ما تسمح به بشريتهم .. و(جلجاميش) ليس استثناء لأن جزءًا كبيرًا منه بشرى ...

وقفت (عشتار) / (عبير) خلف مجموعة من الأشجار تراقب البطل البابلى يسبح .. وابتسمت .. مدت يدها إلى صدرها وأخرجت الأفعى ومسحت على رأسها برقة .. المرأة والأفعى .. دائمًا .. بصرف النظر عن (البوستر) القبيح ردىء الطباعة الذى يعلقه الجميع والذى يمثل امرأة توشك على أن تلثم أفعى ..

إن الأفعى تعرف ما يجب عمله ...

هكذا راح الزاحف الناعم يتسلل وسط الأعشاب حتى بلغ ثياب (جلجاميش) .. وبلطف ورقة راحت تلتهم الأعشاب كلها ..

ضحكت (عبير) وهى ترقب المشهد ..

سوف تنال الأفعى الخلود إن كان كلام (أوتنابشتيم) صحيحًا ..

أما بالنسبة لـ (جلجاميش) .....

ـ « سارد لاك يا كابتن ! »

قالتها (عبير) / (عشتار) وهى تبتعد متأودة وسط الأشجار وهى تغنى أغنية أكادية رقيقة .. لقد اكتمل انتقامها والآن سوف تبحث عن رجل وسيم آخر تضعه فى شركها ثم تزدريه ..

هكذا .....

ويخرج (جلجاميش) من الماء ليجفف جسده هنا يتلقى ألعن صدمة تلقاها فى حياته ..

يمكننا أن نتخيل دون جهد كبير كم بكى .. كم لطم خديه .. كم لام نفسه على غبائه وضيق أفقه ..

وهكذا نهض كاسف البال وقد صمم على أن يعود إلى (أوروك) .. لن يحاول ثانية ..

★ ★ ★

- « حافظ عليها .. إنك إن عدت لن تجد الباقى منها ، لأن هذه الأعشاب تزول إذا اقتطف بعضها ! »

- « ومعنى هذا ؟ »

- « معناه أن ما فى يدك هى آخر فرصة لبشرى للخلود .. »

* * *

وكانت السيارة تنتظر (جلال) كالكابوس عند المدخل ..

نزل الزجاج الأسود من جديد وسألته (عبير) / (لمياء) فى نعومة :

- « أنت جئت من عنده .. أليس كذلك ؟ »

قال شارد الذهن :

- « بلى .. »

نظرت إلى ما بين يديه وقالت فى خبث :

- « وفتحت الورقة برغم أنه نصحك بألا تفعل ؟! »

نظر لها فى حيرة وقال :

- « نعم .. من أين عرفت كل هذا ؟ »

قالت وهى تنظر إلى الأمام عبر العدسات السوداء :

ـ « كنت عنده .. لاتنس أننى قادرة على معرفة تحركاتك ببساطة .. بمجرد أن رحلت أنت ذهبت إليه وسألته عنك .. زعمت أننى أختك وأننى أريد أن أعرف : هل هناك أمل ؟ هل تعرف ما قال لى ؟ »

ـ « ؟؟؟؟؟؟ »

ـ « لقد أعترف لى بكل شىء .. قال إنه أعطاك ورقة بيضاء .. لكنها مهمة لأنك لو وثقت به لشعرت بالتحسن .. احتفاظك بهذه الورقة كان سبيلك إلى الشفاء .. لكنه كان بعيد النظر كذلك .. قال لى إنك لست من هذا الطراز الذى يقتنع بإجابات جاهزة .. كان يعرف أنك ستفتحها .. وعندها يعود خوفك من الموت .. هناك آخرون مروا به وألقوا أسئلة ، فكان يعطيهم هذه الأوراق ويوصيهم بعدم فتحها .. وكانوا يثقون به .. هكذا كانوا يصحون من نومهم شاعرين أن مشاكلهم قد حلت ومخاوفهم قد زالت .. هناك نساء عجزن عن الإنجاب ثم أنجبن بعد ما أعطاهن هذه الورقة .. »

هتف فى غيظ وتحد :

ـ « يا سلام ! ستقولين لى إنه عالج العقم بالإيحاء ! »

ألقى بالورقة التى يحملها بعيدًا وقال :

ـ « وماذا يعنيك من الأمر ؟ »

قالت باسمة وهى ترفع الزجاج من جديد :

ـ « معذرة .. أردت أن أخبرك بما خسرته .. أو لنقلها بصراحة : أردت أن أتشفى فيك ! »

وقبل أن يعلق أو يرد على هذه الصفعة كانت السيارة قد ابتعدت ، فلم يلحق إلا بصوت ضحكتها الهستيرية التى تذكرك بضحكات الممثلات :

ـ « ها ها ها ها !! »

* * *

عند مدخل المدينة نام ...

نام (جلجاميش) للمرة الأولى منذ دهر هادئًا ، لا يؤنب ضميره أنه كان عليه أن يفعل كذا وكذا ..

وفى منامه زاره (إنكيدو) .. ربما للمرة الأولى منذ موته .. ولما كنا نحن ملمين بعوالم الأساطير هذه ، فنحن نعرف أنه حلم متجل صادق ، وأن من جاء لبطلنا هو (إنكيدو) نفسه ..

لم تبد عليه السعادة ولا الرضا .. كان منهكًا محطمًا .. لا غرابة فى هذا .. أكثر الأساطير القديمة تعتبر الموت عقابًا وأن الأهوال تحل بالميت .. أكبر خطأ يمكن للمرء أن يرتكبه هو أن يموت عندهم .. بينما وجدت فكرة الحساب عند قدماء المصريين فى أساطيرهم .. مشهد وزن القلب والغولة الملتهمة .. إلخ ..

قال (إنكيدو) بصوت كسير :

- « ما بك يا (جلجاميش) ؟ لا تبدو سعيدًا .. »

قال (جلجاميش) وهو يبكى بحرقة :

- « كيف لا أبكى وقد أضعت فرصة الخلود للأبد ؟ »

- « ألا تحب أن تأتى إلى ؟ ألا تحب أن تلحق بصديقك الصدوق ؟ »

لم يرد (جلجاميش) .. كانت الإجابة واضحة على كل حال ..

عاد (إنكيدو) يقول :

- « ألا تحب أن تأتى إلى ؟ برغم أنك مهما فعلت آت إلى !! »

ثم قال كأنما هو يستمتع بتعذيب صاحبه :

ـ « لكن تذكر حين تأتى إلى يا (جلجاميش) أن تكون فى أسوأ حال .. لا تتعطر ولا تلبس ثوبًا نظيفًا .. إنك إن فعلت هذا تثير عليك حنق الموتى الذين قتلتهم فى حروبك السابقة .. لا تقبل أحباءك لحظة الوداع .. هذا يثير غضب (شاماش) عليك .. »

فى غيظ وجزع هتف (جلجاميش) بما معناه :

ـ « هى بقت رسمى ؟ »

هذا هو صديقه يخبره باستعدادات الوفاة .. لم يعد من مفر .. لم يعد من مفر ....

وصحا من النوم صارخًا أن هذا كاف .. لابد له من أن يقابل (إنكيدو) من دون أن يموت ..

وفى العالم السفلى سمعت الأخت (أرشيجال) هذا البكاء فلاكت ناصيتها نوعًا ...

نادت أحد أتباعها ـ وهم طبعًا هياكل عظمية ـ وقالت له وهى تقضم تفاحة نخرة :

ـ « هات لى هذا المدعو .. ماذا كان اسمه ؟ (إنكيدو) .. »

انحنى من جديد وهرع ليعود لها بالمذكور الذى لم تكن حالته تختلف عما رآه (جلجاميش) فى منامه .. لقد نجح الموت فى كسر كبرياء البطل الذى كان أقرب إلى وحوش البرية وهو حى ..

قالت له وهى تقضم التفاحة :

ـ « اسمع يا .... سوف نعيدك إلى عالم الأحياء .. »

هتف فى فرح واهن :

ـ « شكرًا لك يا (أرشيجال) العظيمة .. شكرًا لك .. »

قالت مقاطعة :

ـ « ليس للأبد يا (روح ملما) .. ستقابل صاحبك (جلجاميش) وتخبره بأحوالك ثم تعود لى هنا .. هل فهمت ؟ تعود لى .. »

وهكذا تم التعامل مع (إنكيدو) كما يفعلون مع المساجين حسنى السير والسلوك الذين يسمح لهم بزيارة أهلهم فى أيام العيد .. فقط هو مربوط بالـ (كلابش) وحارسه هو زوج (أرشيجال) شخصيًا (نيرجال) .. وهو مذعور جدًا لأن زوجته سليطة اللسان توعدته بخراب بيته لو فر منه (إنكيدو) ..

هناك على أبواب (أوروك) تم اللقاء ..

لقد انفجر (جلجاميش) باكيًا وارتمى فى أحضان (إنكيدو) لكن هذا تراجع قائلاً :

ـ « لاتطل العناق .. فأنا شبح .. والأشباح قد تنزع الحياة من الأحياء .. »

جلسا هناك جوار الأسوار ونظر (جلجاميش) شذرًا إلى (نيرجال) .. كم يود الخلاص منه لكن هذا لاينوى أن يتزحزح .. هكذا سأل صاحبه :

ـ « كيف الأحوال ؟ »

قال (إنكيدو) فى ثبات وكأنه آلة :

ـ « كل شىء تمام .. الوجبات فى وقتها ويعاملوننا معاملة إنسانية طبقًا لاتفاقية (جنيف) .. »

ـ « أسألك عن الأحوال .. »

عاد (إنكيدو) يكرر :

ـ « الوجبات ممتازة واللحم يومان فى الأسبوع .. كل شىء تمام .. ويعاملوننا معاملة إنسانية طبقًا لاتفاقية (جنيف) .. »

هنا أدرك (جلجاميش) أن صاحبه لن يتكلم إلا إذا تخلص من (نيرجال) .. تحايل على الرجل حتى أبعده قليلاً وفك الأصفاد ثم عاد يسأل صاحبه عن الأحوال ..

هنا فقط انفجر (إنكيدو) باكيًا :

- « يعاملوننا أسوأ معاملة .. كل شىء قاس أو سيئ أو مظلم أو كريـه أو متعفن أو مريـر أو مؤلـم أو كئيـب ! إن العـث يأكلنى ست مرات يوميًا ! »

هتف (جلجاميش) فى رعب :

- « يا للكارثة ! كنت أتوقع هذا .. »

قال له (إنكيدو) باكيًا :

- « نصيحتى لك .. حاول ألا تموت أطول فترة ممكنة ! »

هنا صاح (نيرجال) أن الوقت قد ....

.... لم يكن ....

.... (إنكيدو)

وإذ عاد إلى (أوروك) لم يكن ....

.... البشر الآخرين ....

(عشتار) الشرهة التى لا تكف عن ....

.... والرجال الآخرون ....

لأن أسوار المدينة .... خمور ....

.... تأمل يا (أورشاناب .... راقصة ....

هو الذى رأى .... لم يكن .... (أورتنابشتيم) ....

لأن الناس فى (أوروك) ....

.... (عشتار) ....

وكان (نيرجال) ....

.... العالم السفلى ....

.... أسرى ....

.... (نهر الموت) و .... عشب ....

وعاش حتى بلغ ....

★ ★ ★

وكان المرشد يقف هناك فى المرج بانتظارها وهو يضغط على مؤخرة قلمه ..

قالت له مذعورة :

ـ « ماذا حدث للقصة يا (مرشد) ؟ لا أفهم حرفًا من كل هذه الجمل المتقطعة .. »

قال باسـماً :

ـ « أنت الآن تقرئين القرص الثانى عشر من الملحمة وهو مهشم كما تعرفين ، لهذا لايمكن استنتاج الأحداث .. لاتنسى أن ملحمة (جلجاميش) غير مكتملة على الأرجح .. فقط نعرف أنه عاد لمدينته ودون مـآثره جوار أسوارها .. لقد عرف أن الخلود مستحيل للبشر ، لذا قرر أن يمارس الخلود بمعناه المعنوى : ترك آثاراً تحكى عنه للأجيال القادمة .. والحقيقة التى لايجب أن ننساها هى أن (جلجاميش) خالد بالفعل .. آلاف الأعوام مرت ومازلنا نحكى قصته ونتعاطف معها كأنما هى وقعت أمس .. لقد شيد له نصب عظيم فى مدينة التراث الإنسانى ، وهذا النصب سيظل للأبد .. قليل من الأحياء اليوم من يتمتع بات الحياة التى ينعم بها (جلجاميش) العظيم .. »

ثم نظر لها فى إعجاب وقال :

ـ « كنت موفقاً حينما لخترت لك دور (عشتار) .. لاتتصورى مدى روعتك وفتنتك .. »

ـ « هذه الفاتنة قد رفضها (جلجاميش) وقد لعبت دور شرير القصة أو (الفيلين Villain) كما يقول السينمائيون .. »

ـ « لاشىء أكثر شرًا من امـرأةٍ صدمت فى كبرياء أنوثتها ذاته .. على كل حال هذه الشخصيات الشريرة تضفى حيوية كبيرةً على القصص .. »

راحت تمشى فى المرج وهى ترفع ذيل ثوبها كى لاتدوس على الوحل وعادت تسأله :

ـ « وماذا إن (جلال) ؟ الفتى الذى انتقمت منه (لمياء) ؟ »

ـ « سوف يتخلص مـن فكرة المـوت ، ويعود إلـى حياتـه النشطة المثمرةَ .. سوف يعى أن الخلود للّه وحده ، ولسـوف يبحث عن السبيل البشرى للخلود .. يتزوج ويكون أسرة .. »

نظرت إلى تلك السهول الخصبية رائعةً الجمال .. إلى القنوات المعقدة التى شادها السومريون والبـابليون والأشوريون .. إلى الأبراج والأسوار .. إلى النقوش التى تصور الرجال الأشداء كثى اللحى يصطادون الأسود برماحهم .. وهتفت دامعة :

ـ « عظيمةً أنت يا بلاد ما بين النهرين .. خالد يا عراق منذ كـان (حمورابى) يمشـى على أرضـك ، و(هــارون الرشـيد) يصدر تعليماته لوزرائه من قصورك ، وحتى اليوم .. مـا أهميـة بضعة أعوام سيئة فى تاريخ يتكلم بآلاف السنين ؟ »

فى الكتيب القادم تعود (عبير) لعالم كاتب غزير الإنتاج عظيم الشهرة .. إن اسمه د. (نبيل فاروق) .. هل تعرفون الاسم؟ جميل .. يمكننا إذن أن ندخل معها عالم (أرشيف الغد) !

تمت بحمد الله

■■ المصادر :

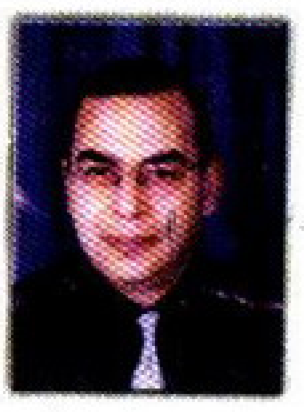
- موسوعة المعرفة .
- ول ديورانت : قصة الحضارة .(النسخة التى وجدها صديقى فى حديقة داره عام 1985 كانت عتيقة ممزقة الغلاف لهذا لا أستطيع إعطاء بيانات أخرى ، لكنها الجزء الأول على الأرجح) .
- د. سمير سيف : إخراج أفلام الحركة : تجربتى فى السينما . آفاق السينما (25) . الهيئة العامة لقصور الثقافة . يناير 2003 .
- شبكة الإنترنت .

روايات مصرية للجيب



مغامرات ممتعة
من أرض الخيال




د. أحمد خالد توفيق

صديقي (جلجاميش) ليس شخصاً عادياً ..
إنه واحد من أبطال الملاحم، وطموحاته ليست أقل من تحدي الموت ذاته ..

صديقي (جلجاميش) ليس شخصاً عادياً ..
إنه رمز لحلم الإنسان بالخلود ..

صديقي (جلجاميش) ليس شخصاً عادياً ..
إنه لحن أصغى له العالم منذ آلاف السنين، قادماً من بلاد ما بين النهرين، وحتى هذه اللحظة ما زال يطرب له ...

القصة القادمة

أرشيف الغد

الثمن في مصر ٢٥٠ قـ
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

مطابع